الفصل الاول

(بطل هذه الرواية)

فيلله كوتريه بلدة عند حدود بيكارديا وسواسونيز قائمة في وسط غابة متسعة الارجاء تمتد الى الشمال والجنوب بشكل هلال ضخم وتتوارى وراء غابة واسعة غرسها فرنسيس الاول وهنري الثاني . اشتهرت هذه البلدة بكونها مسقط راس الكاتب الفرنسوي الشهير البير ديموستيه الذي كان في بداية هذه الرواية ينشر كتباً بعنوان « رسائل الى اميلي » كانت تتخاطفها حسان ذلك الزمان و يقرأنها بارتياح شديد

وزيادةً في وصف هذه البلدة نقول انها مسقط راس اسكندر ديماس نفسه فضلاً عن انها على فرسخين من لا فيرتي ميلون حيث ولد الشاعر راسين وعلى ثمانية من شاتو تياري حيث ولد لافونتين . زد على ذلك ان ام راسين نفسها من هذه البلدة ايضاً

في وسط هذه البلدة بازاء القصر الملكي القائم فيها بيت تكتنفه حديقة واسعة تبرز رؤوس اشجارها من فوق الجدران فتفرش الطريق في الربيع زهراً طيب الرائحة

وكان هذا البيت للراهب فورتيه راهب القصر الملكي وكاهن الكنيسة القائمة بازائه وهو يقيم فيه اي في البيت مدرسةً لابناء البلدة وغرضنا الآن الدخول الى هذه المدرسة

ولكن هوذا الاولاد يخرجون من المدرسة قبل دخولنا اليها . فانه ما سُمع قرع جرس في الداخل حتى فُتح باب المدرسة فتحاً شديداً واندفع منه عشرات من التلامذة وهم يصرخون ويثبون . وكان هئولاء التلامذة يسمون فريق اللاعبين . لان اولاد هذه المدرسة كانوا في ذلك الوقت كباقي رفاقهم في المدارس الاخرى ثلاث فئات . فئة يسمونها اللاعبين وهم الذين يحبون الحركة والوثب والالعاب على اختلافها ويسمونهم « الاشقياء » وفئة لا لاتلعب ولا تثب بل تلزم الهدوء وسكينةً تقرب من البلادة ويسمونهم «العقلاء » وفئة ثالثة تقيم على المقاعد في قاعة الدرس تتثاءب طول الوقت وراء الكتب التي امامها حين يكون باقي التلامذة في ساحة اللعب او في المنازل لتناول الغداء ويسمونهم « الكسالى » . ذلك ان اقامتهم في قاعة الدرس في غير اوقاته عقاب لهم على كسلهم

ففيما كان فريق اللاعبين يتواثبون ويلعبون في ساحة القصر امام المدرسة وفريق العقلاء يسيرون الى منازلهم بهدوء وهم يتلفتون الى رفاقهم كانهم ياسفون لعجزهم عن اللعب وفريق الكسالى يتثاءبون في قاعة الدرس وهم صامتون امام عريف يتولى مراقبتهم — كان على السلم المؤدية الى الباب الخارجي ولد واقفاً ذليلاً صاغراً بازاء راهب يرغي ويزبد حنقاً عليه وهو يقول

— اذهب ايها الشقي . اغرب عن وجهي ايها الحيوان البليد . اذكر انني صبرت عليك ثلاث سنين ولكن جهلك يذهب بكل صبر حتى بصبر الاب الازلي نفسه . نخذ كتبك واذهب من مدرستي . اذهب الى جهنم الى الشياطين الى حيث تشاء على شرط ان لا ارى وجهك فيما بعد .

اما الولد فكان يقول متلطفاً صاغراً :

— ارجوك ياسيدي ان لا تغضب عليَّ . أمن اجل بعض اغلاط صرفية تكدر خاطرك ياسيدي الراهب

فقال الراهب اذهب فلست اهلاً للشفقة . اغلاطك لا تحتمل . خمس اغلاط في الاشتقاق واربعة في التصريف في ثلاثين سطراً فقط . اذهب فاني لا اطيق ان ارى هذا الوجه .

قال الولد مولاي ان هذا من سوء حظي واني اعدك ان اصلح اغلاطي

قال وعدتني كثيراً من قبل اما الآن فقد عيل صبري فاخرج من مدرستي

فقال الولد متذللاً متباكياً عفواً عفواً يا معلمي يا استاذي

فصاح عند ذلك الراهب قائلاً : انا معلمك ؟ انا استاذك ؟ كلا لست معلمك ولا انت تلميذي . اني انكرك ولا اعرفك ولا اريد ان اعرفك فلا تذكرني فيما بعد واذا نظرتني فلا ارضى ان تسلم علي

فقال الولد مهلاً ياسيدي اذا كبر عليك جهلي فبكلمة منك الى سيادة المطران الذي يتولى امتحاننا ينقضي الامر بسلام

فصاح الراهب بغضب اخرس ايها اللئيم اتطلب مني ان اكذب ايضاً

فقال الولد اذا كذبت ياسيدي من اجل الخير فالله غفور رحيم

فاستشاط الراهب هنا غيظاً وقال : تعلمت الجدال ايضاً ايها الشقي قلت لك اخرج من هنا فان لم تفعل اخرجتك بهذا السوط على عجل

قال هذا ورفع السوط الذي بيده كما يرفع القائد حسامه في ساحة القتال ومد اصبعه الى الباب مشيرًا الى الولد ان يخرج

فعلم الولد انه لم يبق في القوس منزع فانحنى تحت يد الراهب خوفًا من السوط واتجه صوب الباب فعاجله الراهب بضربة من سوطه على ظهره فكانت كلمة الوداع

فخرج الولد من باب المدرسة وهو يبكي لالم الضربة ولخروجه من المدرسة وجعل يقول وهو سائر في طريقه : ماذا اقول الآن لعمتي وماذا تصنع بي متى علمت ان المسيو فورتيه طردني من مدرسته

وكان هذا الولد يدعى أنج بيتو وهو بطل هذه الرواية

الفصل الثاني

(العمة لا تكون حنونًا كالام دائمًا)

كان انج بيتو في بدء هذه الحوادث ولدًا في السابعة عشرة من عمره . وكان طويل القامة رقيقها بشعر اصفر ووجنتين حمراوين وعينين زرقاوين وشفتين ضخمتين تحتهما صفان نخيفان من الاضراس وما كانت تخيف الا الذين يقاسمونها غذاءهم . وكان في طرفي ذراعيه الدقيقتين المثبتتين في جسمه اثباتًا شديدًا كفان عريضتان سميكتان كانهما مخباطان للثياب عند الصباغين او مذراران من التي يذرّ بها الفلاحون اكداس الحبوب . وكانتا تتدليان على ساقين له طويلتين في وسطهما ركبتان ضخمتان كل واحدة منهما كرأس الولد تنتهيان بقدمين ضخمتين في حذاء من جلد العجل الاحمر كما كانوا يلبسون في ذلك الزمان

هذه هي صورة بيتو البدنية اما صورته الادبية فاليك بيانها

وُلد انج بيتو في قرية هارامون على فرسخ من فيلاله كوتريه وتوفي والده وهو طفل فنشأ في حضن امه التي كانت لا تحبه حبًا بل تعبده عبادة . فلما شب وترعرع صار همه صيد الطيور وتخريب اعشاشها في الاحراش المحيطة بقريته فبرع في هذا الشان براعة غريبة وفاق فيه جميع اولاد القرية . وكان الناس اذا راوه يتسلق الاشجار بتلك الخفة العجيبة اعجبوا به كثيرًا ولو كان في اقليم اقرب الى خط الاستواء لشارك القرودُ الناس في اعجابهم به وحسدته على خفته

وكانت امه تنظر بعين الرضى والمسرة الى اعجاب الناس به لذلك لم تحسب لمستقبله

حساباً ولم تفتكر بمصير ولدها بعدها · لكنها مرضت يوماً من الايام واحست بدنو اجلها فرات ان ولدها وثمرة احشائها سيصبح بعدها يتيماً وحيداً في هذه الحياة بدون سند ولا معين فاسودت الدنيا في عينيها واخذت تفتكر في شخص تعهد اليه بالقيام على ولدها

فذكرت في ذلك الحين انه اتاها منذ عشر سنوات رجل في منتصف الليل وبين ذراعيه ولد صغير وعهد اليها ان تربي هذا الولد في مقابلة مالٍ اودعه لدى المسجل في تلك القرية · ولم تكن تعرف من هذا الرجل سوى انه يدعى جيلبار · فقامت على الولد احسن قيام فربته مع بيتو ولدها وكانت تعنى بهما عناية واحدة · ولما ادرك الولد السبع سنين جاءها ذلك الرجل يطلبه منها

ولكنه كان هذه المرة رجلاً مهيب الطلعة حسن البزّة رزيناً هادئاً يخيل للناظر اليه ان عليه قشرة من الثلج لبرودته وجموده · على انه لما ابصر ولده ذاب هذا الثلج عنه واستسلم الى عواطفه الابوية · وقد راقه ما رآه في الولد من دلائل الصحة والنشاط واعجبه بالخصوص انها ربته في الطبيعة كما اوصاها بذلك فالتفت الاب اليها وقال لها

— لكِ ان تعتمدي عليَّ حين الحاجة

ثم اخذ ولده واستدل على طريق (ارمانونفيل) حيث كان قبر جان جاك روسو فزار هذا القبر هو وولده ثم عاد الى فيالله كوتريه فسمع فيها ثناء على مدرسة الاب فورتيه فوضع ابنه فيها وترك لدى الراهب عنوان اقامته وسافر من تلك القرية

فلما دب الموت في مفاصل والدة بيتو كما مرَّ بنا ذكرت هذه التفاصيل كلها وتذكرت بالخصوص قول ذلك الرجل — « لكِ ان تعتمدي عليَّ حين الحاجة » فاستدعت كاهن القرية وعهدت اليه ان يكتب من قبلها كتاباً يبسط فيه حالها لذلك الرجل المجهول ثم ارسلت الكتاب الى الاب فورتيه فوضع عليه عنوانَ ذلك الرجل وارسله الى مكتب البريد ·

وقد جاء هذا العمل في حينه لان هذه المسكينة ماتت في غد هذا اليوم

وكان عمر بيتو اثنتي عشرة سنة · فبكاها بكاء مراً · ولم يبكها لانه ادرك معنى الموت بل لانه رآها ممدودة امامه صفراء بلا حراك · فدله قلبه ان امه قد فارقته وان ملاكه الحارس قد طار عنه الى السماء · ولما اخذوا امه الى المدفن ورآهم بيتو ينزلونها في حفرتها الابدية وسمع وقع التراب والحجارة على نعشها اجهش بالبكاء وانطرح فوق القبر فحاول الحاضرون ان يرجعوه معهم فابى الرجوع وبقي فوق التربة قائلاً انه لا بد ان

يذهب الى حيث ذهبت امه ٠ فالحوا عليه بالعودة معهم وحاولوا اجتذابه بالقوة فناح وصاح وانطرح على الارض وتوسل اليهم ان يتركوه مع امه فانه لم يفارقها دقيقة واحدة في الحياة فيجب عليه ان لا يفارقها ايضاً في الممات

فاقام بيتو المسكين فوق حفرتها نهاراً كاملاً وليلة كاملة

وفي الغد دخل الى المدفن رجل خطير الهيئة وهو الرجل الذي كتبت اليه ام بيتو قبل موتها ٠ فانه لما وصله كتابها ادرك عظم الواجبات الادبية التي عليه للولد المسكين التي توصيه به فقام مسرعاً الى تلك القرية فقيل له انهم دفنوها وان بيتو اقام فوق قبرها ٠ فجاء المقبرة كما ذكرنا وكان بيتو يعرف الرجل من زياراته لهم لما كان ابنه عندهم وكان يحبه ويرقص طرباً كلما زارهم لما يعلم من انه اصل هنائهم وسعة يدهم ٠ فلما رآه بيتو قادماً عرف انه الملاك الذي ارسلته امه اليه ٠ فاجهش بالبكاء ولكنه استسلم اليه وسار عائداً مع الرجل وهو يتلفت متزوداً من قبر امه نظرة الوداع ٠ وكان على باب المقبرة مركبة في الانتظار فركباها الى بيت بيتو فعهدوا به الى بعض الجيران ثم سار الرجل ببيتو الى فيلله كوتره فنزلا في احسن فنادقها في ذلك الزمان وكان فندق « دوفين » فوجدا فيه خياطاً ينتظرهما ومعه ثوبان كاملان لبيتو فلبس بيتو احدهما وبعد الظهر اخذه الدكتور وسار به متجهاً نحو حي (لوبلو)

وكان بيتو كلما تقدم من هذا الحي قصرت خطاه وابطأ في السير ذلك ان قلبه دله على ان الرجل يسير به الى عمته التي كانت تسكن منزلاً في هذا الحي وكان لا يحبها

ولنقل هنا كلمة في عمة بيتو ٠ واسمها مادموازل انجليك بيتو وهي امراة في الثامنة والخمسين من العمر ٠ وكانت تظهر التقوى والتدين وتعيش من غزل القطن واحسان المحسنين اليها ٠ وكان حبها للمال شديداً بقدر حرصها على حفظه ٠ فانها كانت ما عدا غزل القطن واحسان المحسنين تؤجر مقاعد الكنيسة للمصلين بناء على تسامح الكاهن معها واذنه لها في ذلك فكانت تاخذ كلما تكسبه من هذه المصادر الثلاثة فتحول فضته ذهباً بتبديل العملة ثم تاخذ الذهب فتنزله في ثقب في مقعد كرسي قديم عندها تتخذها بمثابة خزانتها ٠

وكان يوم وصول الدكتور اليها يوم فرح عندها فانه بينما كان الاحتفال بجنازة اختها قائما في كنيسة هارامون كان في كنيسة فيلله كوتره احتفال بعقد زواج وكان الحاضرون كثيرين فكان ايراد المقاعد في هذا الاحتفال كثيراً ٠ ولما وصل الدكتور مع بيتو الى باب منزلها كانت تنزل في وسادة كرسيها من الثقب المعلوم الذهب الذي ربحته في ذلك النهار ٠

فدخل اليها الرجل وبيتو فلما رات ابن اخيها اظهرت البكاء فابلغها الرجل سبب زيارته لها فقال لها . ماتت زوجة اخيك عن هذا الولد ولا سند له في هذا العالم فخذيه يامدموازيل انجليك وربيه شفقة عليه وقياماً بما يجب عليك لاخيك

فنغرت انجليك فاها ونظرت الى بيتو شزراً ثم حولت وجهها عنه وقالت للرجل بغيظ ظاهر . انا فقيرة الحال لا استطيع اشباع هذا الولد فانه يأكل كثيراً ويتلف في كل شهر ثوباً .

فلم يستغرب الرجل هذا الرفض وكان يتوقعه لانه كان من انصار الافكار الجديدة وكان قد صدر في ذلك الوقت كتاب (لافاتير) في الفيزيونومي (علم الاخلاق من هيئة الوجه) فاراد الرجل اختبار تعاليم الفيلسوف (زوريخ) في هيئة العمة انجليك فبعد الفحص وجد ان العينين الصغيرتين المتقدتين والانف الطويل والشفتين الرقيقتين دليل على الشراهة والاثرة والرياء مجموعة في شخص واحد

وبما انه عرف الداء فقد سهل عليه معرفة الدواء . فقال للعمة انجليك . اذا كنت لا تقومين على تربية هذا الولد فانني ارى نفسي مضطراً الى ان اودع شخصاً غيرك المال الذي خصصته لتربيته

فلما سمعت العمة كلمة (المال) ابرقت عيناها الصغيرتان وانفتح فمها وانقلبت سحنتها فتقدمت من بيتو بهيئة حزن شديد وعانقته وهي تقول متباكية

— كيف لا اعتني به ولا اربيه ولم يبق لي من اخي اثر غيره

فضحك الرجل في نفسه وانتهى الامر بينه وبينها بعقد اتفاق الى خمس سنين سجلاه عند المسجل ومؤداه ان العمة انجليك تربي بيتو ابن اخيها في مقابلة ثمانية ذهب تاخذها من الرجل في كل سنة على شرط ان تعلمه حرفة يأكل منها خبزه في مستقبل ايامه . ودفع لها الرجل الثمانية ذهب الاولى فانقضت عليها العمة انجليك كما ينقض الاسد على فريسته وبعد ذهاب الرجل انزلتها الى حيث يعلم القارئ اللبيب

اما بيتو فتعلق بالرجل قبل سفره وقال له العيش صعب علي عندها ياحضرة الدكتور فقال الرجل . ولماذا يابني . قال لانها كانت لا تحب امي ياحضرة الدكتور . فقال الرجل الذي كان يسميه بيتو دكتوراً لا تخش شراً يابني فاني كفيلك في كل امورك

وفي الحقيقة ان هذا الرجل كان دكتوراً كما سماه بيتو وقد علمنا من ام بيتو انه يدعى جيلبار فهو اذاً « الدكتور جيلبار »

وقد حققت انجليك ظنون بيتو فكانت تسيء اليه بشراسة ولم تعلمه حرفة كما اوصاها الدكتور بل جعلته يصطاد لها الطيور والارانب تاكل منها وتبيع وتهب للاب فورتيه الذي يتسامح معها في تاجير مقاعد الكنيسة فكان لها من ذلك لكرسيها الذهبية مورد رابع جديد فوق مواردها الثلاثة التي ذكرناها آنفاً

واقام بيتو على ذلك لا عمل له غير محاربة الارانب والطيور في احراش فيلله كوتره حتى جاء مسجل تلك القرية في يوم من الايام وذلك بعد انقضاء شهور على سفر الدكتور جيلبار فطلب من العمه انجليك بناء على كتاب من الدكتور ان تنفذ اهم شرط ورد في الاتفاق بينهما وهو تعليم بيتو حرفة ياكل منها خبزه في مستقبل الايام والا فان الدكتور يعتبر اتفاقهما بشان المرتب السنوي باطلاً لبطلان اهم شروطه فيسترد حينئذٍ المال الموضوع عند المسجل لتاخذ منه العمة انجليك الذهب الثمانية في كل سنة

فحزنت العمة انجليك ورات انها ستحرم المورد الرابع فطلبت مهلة ثمانية ايام حتى تدبر للولد حرفة يعمل بها · وبعد ان افتكرت يوماً او يومين سرى عنها حزنها لخاطر جديد خطر لها ·

ذلك انها قالت في نفسها انها تلتمس من الاب فورتيه صاحب المدرسة في القرية ان يقبل حفيدها في سلك تلامذته ويعده لدخول المدرسة الاكليريكية فيخرج منها رئيساً لاحد الاديرة فتكون هي ولية امره ورئيسة عملة · فرقص قلبها طرباً لهذا الخاطر الجديد وسارت تريد الاب فورتيه

فطلبت منه ان يقبل حفيدها في مدرسته ويعده للمدرسة الاكليريكية فاجابها فدخل بيتو تلك المدرسة

وكان الاب فورتيه رجلاً كريماً شريف النفس يهب علمه مجاناً للفقراء عقلياً وماله للفقراء مالياً · الا انه كان شرساً شديد الغضب بشان الاغلاط النحوية والصرفية فانها كانت تخرجه عن دائرة الاعتدال واذا غضب ضرب ضرباً مبرحاً غير محترم كبيراً او صغيراً ولا حافظ كرامة غني او فقير · وكان لشدته قد كتب على سوطه هذه العبارة

« من يحب كثيراً يعاقب كثيراً »

وكان يفتح ذراعيه ويقول كسيده الاعظم « دعوا الاولاد ياتون اليَّ ولا تمنعوهم » انما كانت ذراعاه مسلحتين احداهما بسوط والاخرى بعصا · وكثيراً ما حدث للاب فورتيه عكس ما كان يحدث ليسوع فقد كان يسوع يستقبل الاولاد باكين فيمسح دموعهم ويعيدهم

ضاحكين مسرورين اما الاب فورتيه فكان يستقبلهم خائفين مرتجفين فيعيدهم باكين معولين

ولما دخل بيتو الى مدرسة الاب فورتيه امتحنه الاب فورتيه فوجد عقله قاصرًا وكانت تساله العمة انجاليك عن حاله ومصيره فيجيبها — ان اغلاطه النحوية والصرفية تدل على عجزه عن بلوغ غرضه فكانت العمة لا تفهم شيئًا من هذا الكلام

وكان بيتو يتردد على المدرسة في كل يوم الا يومي الخميس والاحد فانهما كانا يومي فرصة للتلامذة فكانت ترسله عمته الى الاحراش لصيد الارانب والطيور · وصرف بيتو اربع سنين في المعيشة على هذا الوجه حتى طرأ حادث شغله عن ارانبه وطيوره

ذلك انه كان في طريقه الى الحرش قرية صغيرة تدعى (بيسلو)وفيها مزرعة لرجل يدعى المسيو بيلو · فكان بيتو كلما مرَّ بهذه المزرعة ابصر على بابها فتاة صبوحة الوجه بشوشة جميلة تسمى كاترين · فلما رآها بيتو لاول مرة اشار اليها مسلمًا · وفي المرة الثانية سلم عليها مبتسماً · وفي المرة الثالثة تشجع وجمع قواه وقال لها

— صباح الخير يامدموازل كاترين

وكانت كاترين فتاة سليمة القلب فسلمت على بيتو تسليم من يعرفه معرفة قديمة · وفي الحقيقة ان كاترين كانت تعرفه معرفة قديمة · فقد كانت تراه يمر من امام الباب منذ سنتين او ثلاث سنين مرة او مرتين في الاسبوع قاصدًا الحرش القريب · كانت تراه ولكنه لم يكن يراها لانها كانت في السادسة عشرة من العمر اما بيتو فكان يومئذٍ في الرابعة عشرة · فلما ادرك السادسة عشرة رآها وسلم عليها كما مرَّ بنا ··

ومن هذا الحين جعل يقف ويحادثها في ذهابه الى الحرش وايابه منه · وصار يهديها من صيده فكانت تشكره على ذلك بالطف وتثني على مهارته · فشغله ثناء كاترين ولطف حديثها عن الصيد وشؤونه فلم يعد يصطاد شيئًا فشعرت عمته بالخسارة فنبهته الى قصوره فاجابها ان الارانب والطيور قد اصبحت اشد حذرًا واكثر انتباهًا فعزت العمة انجاليك هذا الامر الى تقدم الفلسفة وارتقاء العقول ··

وما زال بيتو آخذًا بهذه المعيشة حتى داهمه الخطب الشديد وهو طرده من مدرسة الاب فورتيه كما مرَّ بنا في الفصل الاول · فلنرجع الآن اليه لنرى ما يتم بينه وبين عمته

الفصل الرابع

(بيتو يهرب الى حيث يحب)

وكان بيتو يسير نحو منزل عمته وهو يقدم رجلاً ويؤخر اخرى . وخيل له وهو مطرود من المدرسة انه مطرود من جنة ملاكها الحارس الاب فورتيه ولكنه يحميها بسوط لا بسيف

وكان حزيناً لامرين الاول لخوفه غضب عمته والثاني لمفارقته المدرسة

اما عمته فكان يذكر غضبها وفرائصه ترتعد . وكان هذا المسكين لا يعرف نيات عمته الا بالطريقة التي يعرف بها الكلب نية سيده اي بغريزته وذلك بالنظر الى سحنته . وكان يرى في سحنتها الاهتمام الشديد بتعليمه فكان يعلم من ذلك شدة اهمية اقامته في المدرسة

اما حزنه لمفارقته المدرسة فناشئ عن العادة . فانه تصور انه غير عائد الى هذه المدرسة التي عاش فيها . ورأى بالفكر رفاقه التلامذة قادمين منها وذاهبين اليها وهم يثبون ويطفرون حاملين كتبهم وغذاءهم فأنّ في نفسه وحزن على هذه المعيشة التي يفارقها . وخيل له حينئذٍ ان المدرسة نعيم مع انه كان يراها من قبل في كل يوم جحيماً

ووصل بيتو الى منزل عمته وجلاً خائفاً ففتح الباب ودخل يفرك عينيه ويجر رجليه جرّاً ويقول آه ياعمتي انا مريض جدًا

فنظرت اليه عمته وصاحت به : ما جاء بك الآن

فبكى بيتو فقالت له عمته لتمارض حتى تأكل مع ان وقت الغذاء قد مر فادخل وكل وعد مسرعاً الى المدرسة

ذلك ان العمة انجليك كانت فرضت على بيتو المسكين كل ما كان يبطيء عن الساعة الثانية عشرة ان لا تغذيه عقاباً له على ابطائه فكانت بهذه الطريقة تقتصد في كل سنة خمسين او ستين غداء

اما بيتو فاجابها — لا لست جائعاً ياعمتاه

فادهشها هذا الجواب واستغربت ان يقول بيتو انه ليس جائع . مع انها لم تسمع ذلك منه قط في كل حياته وحسبت ان به مرضاً حقيقياً فنظرت اليه باهتمام وقالت — ما

بك اذًا تكلم

فلما راى بيتو في كلام عمته شيئًا من اللين اجوش بالبكاء وقال · مصيبة عظيمة ياعمتاه

قالت ماذا

فزاد بكاء بيتو

قالت ماذا · قل · فقد عيل صبري

قال طردني المسيو فورتيه

فصاحت العمة انجليك مستنهمة : طردك ؟

قال نعم طردني

قالت ومن اين طردك

قال من المدرسة

فبلغ الغضب من العمة انجليك وصاحت ببيتو · لم يبقَ اذًا امل بالامتحان ودخولك المدرسة الاكليريكية ؟

فاستحال هنا بكاء بيتو الى زفير وشهيق شديد فصاحت به العمة · وما سبب ذلك ايها الشقي ألانك لا تزال تترك المدرسة وتطوف حول مزرعة المسيو بيلو

فاشار بيتو براسه اشارة سلبية

فصاحت بغضب اكثر اختداماً : كذبت ايها الشقي فقد نظرك كثيرون في الاحد الماضي مع مدموازيل بيلو في دهليز (سوبير)

فصاح بيتو : كلا ما كنا بدهليز سوبير ولكن في جهة اورانجيري

فصرخت العمة بهيئة المنتصر : ارايت ايها الشقي ان ظني في موضعه

قال صدقيني ياعمتي انه ليس لكاترين دخل في طردي من المدرسة

قالت احسنت احسنت · لقبها تحبباً « بكاترين » نجنا يارب من هذا الجيل الشرير · اولاد يحبون في السابعة عشرة · نجنا يارب من فساد هذا الجيل

فقال بيتو اقسم لك ياعمتي انه ليس لكاترين دخل في طردي من المدرسة

قالت يالها من شقية فاسدة القلب

قال حاشا لها ياعمتاه فانها طاهرة القلب كالملاك وكلما اجتمعنا تطردني عنها لارجع الى شغلي

قالت عافاك عافاك ايها الشقي · من حسن الى احسن · لقبتها تحبباً بكاترين والآن

تدافع عنها ولكن الا تعلم ايها الابله لماذا تطردك عنها . ذلك لكي لا يراكما احد

فقال بيتو في نفسه . صدقتْ عمتي فان كاترين ما كانت تطردني الا حين ترى قادماً قال ذلك بنفسه وبقي مفكرًا

اما عمته فصاحت به اذ رأت تفكيره — ارايت ايها الشقي كيف اسكتك ذنبك فكونا اذًا كلا كما على حذر . ان الاب فورتيه كاهن اعترافها فساطلب منه ان يسجنك في المدرسة اسبوعين لا تاكل بخلالها غير الخبز والماء عقاباً لك واما مدموازل كاترين فاذا كان لا يبرد نارها غير دخولها الدير فستدخله عن قريب ان شاء الله

فقال بيتو باضطراب ولكن صدقيني انها ليست سبب طردي

قالت فما السبب اذًا

قال السبب بسيط ياعمتي وهو انني (على قول المسيو فورتيه) كثير الاغلاط الصرفية والنحوية . وقد قال لي مرارًا « انني لا استطيع الوصول الى حيث اقصد » اي لا استطيع الدخول الى المدرسة اللاهوتية

فصاحت العمة قد خابت آمالنا اذًا فلا تصير انت راهباً لا كون انا مدبرة شانك؟

قال وا اسفاه ياعمتي نعم خابت الامال

قالت وماذا تريد ان تكون اذًا

فرفع بيتو يديه الى السماء وقال كما تريد العناية

فصاحت العمة وقد اخذ الغضب منها كل ماخذ . العناية ؟ قد فهمتُ الآن ايها الشقي . انك تتعلم مبادئ الكفر الجديد . انك تتعلم الفلسفة

فقال بيتو مبهوتاً كلا ياعمتي فاني لا استطيع درس الفلسفة الا بعد درس البيان

قالت محتدمة غيظاً . لا اتكلم عن هذه الفلسفة ايها الشقي وانما عن فلسفة . الفلاسفة الاشرار مثلك . اتكلم عن فلسفة المسيو أرويت . عن فلسفة المسيو جان جاك . عن فلسفة المسيو ديديرو مؤلف كتاب « الراهبة »

قالت ذلك ورسمت الصليب على صدرها . فقال بيتو وما معنى كتاب « الراهبة »

قالت لا تتجاهل ايها الشقي لا بد انك قرات هذا الكتاب

قال اقسم ثلاثا انني لا اعرف ما هو

قالت بلى قراته ولذلك لا تريد ان تكون من الكنيسة

قال لا . انا ما رفضت ان اكون من الكنيسة ولكن الكنيسة هي التي رفضت ان اكون منها

فاستشاطت هنا العمة غيظاً وهمت الى مكنسة وراء الباب وهي تقول — تعلمتَ الجدال ايضاً فاصبر حتى اريك كيف تخيب آمالي

ثم اخذت المكنسة وقبضت على عنق بيتو المسكين ورفعتها فوق راسه . فذكر بيتو عند ذلك سوط الاب فورتيه ومعنى رفعه فوق راسه في ذلك اليوم فعلم انه قد انقطع ما كان بينه وبين عمته كما انقطع ما بينه وبين معلمه فانسلَّ من يدها وخرج من الباب ركضاً كأن جميع ابالسة الجحيم تطارده وكان متجهاً في ركضه صوب مزرعة المسيو بيلو يسوقه الخوف من عمته ورجاء الاقامة قرب مدامو زيل كاترين

الفصل الثالث

(مزارع فيلسوف)

ووصل بيتو الى باب المزرعة فوجد فيه مدامو زل كاترين جرياً على العادة ثوب ابيض ناصع ووجه مورد وشعر اشقر كانه اكليل جميل حول وجهها الصبوح . فقص عليها قصته مع عمته وطردها اياه ثم سالها ان تعطيه عنوان الدكتور جيلبار لابلاغه امره فسرت كاترين بخروجه من بيت عمته واخذته الى ابيها المسيو بيلو . فلما ابصره ابوها قال له . هذا انت يابيتو ؟

قال نعم ياسيدي

قال ما جاء بك

قال عمتي طردتني

قال ولماذا

قال لانني لم اقدر على درس اليونانية لا كون راهباً

مسكين بيتو كان يجب ان يقول اللاتينية بدل اليونانية

فصاح بيلو ولكن هل اعرف اليونانية انا . أأعرف اللاتينيه . أأعرف الفرنسوية . فما الذي يمنعني من ان اشتغل . فاياك والبطالة ايها الفتى فانها راس المعاصي . اي

عمل تحسن

قال بيتو لا اعرف غير مد قضبان الدبق ونصب الحبائل للارانب والطيور

فضحكت كاترين اما بيلو فزادت ملامح وجهه خطارة فصاح ماداً قبضته بعنف وشدة — قبحاً لهذه المدارس التي لا تربي تلامذتها الا في البطالة والكسل. ماذا يستطيع هذا الشاب الآن بعد خروجه من المدرسة لمنفعة اخوانه

فقال بيتو من حسن الحظ ياسيدي انني ليس لي اخوة

قال اردت باخوانك جميع بني البشر ايها الجاهل . فهل علموك ايضاً انهم ليسوا اخوة

قال بل هم اخوة كما يقول الانجيل

قال ومتساوون ايضاً

فاظهر بيتو الدهشة وقال : اما هذا فلا اصدقه لانني لو كنت مساوياً للاب فورتيه لما جاز له ان يطردني من المدرسة

فقال بيلو سابرهن لك هذه المساواة فاقم عندنا في المزرعة لانني بحاجة اليك . وقد جئت في حينك

فقالت كاترين لقد كفيته يا ابتاه عناء الامر الذي جاء من اجله

قال وما جاء به

قال جاء يسألك عنوان صديقك وشريكك الدكتور جيلبار ليبلغه امره مع عمته فهل لا يزال الدكتور في اميركا

قال بيلو بل قدم منها من عهد قريب . وانا محتاج الى بيتو لامر متعلق بالدكتور

قالت وكيف علمت قدوم الدكتور وما هو هذا الامر

قال اخذت منه امس كتاباً يبلغني فيه قدومه مشفوعاً بكراس جميل

قالت وما هذا الكتاب والكراس . وكيف عرفت ما في هذا الكتاب مع انك لا تحسن القراءة

عفواً يا ابتي لا اهينك بقولي هذا فاني سمعتك مراراً كثيرة تفتخر بعدم معرفتك القراءة

فقال بيلو بصوت كالرعد القاصف . نعم افتخر بذلك لاني اكره ان اكون مديوناً بشيء لاحد من الناس . واحب ان يقال عني « ليس لاحد جميل على بيلو حتى ولا معلم المدرسة وقد جمع ثروته بجده من غير مساعدة احد » . اما الكتاب فقد قرأه لي ضابط رأيته في طريقي . خذ واقرأه لها يا بيتو قبل ان تسأل عن فحواه فاني اعرفها

كثيرة السؤال

فاخذ بيتو الكتاب وقرأ ما ياتي

«عزيزي المسيو بيلو

«عدت من اميركا حيث شاهدت شعباً غنياً سعيداً عظيماً وما ذلك الا لانه متمتع بحريته واستقلاله • اما نحن معاشر الفرنسويين فاننا فقراء تعساء لاستعبادنا وضعفنا غير اننا بالرغم عن ذلك صائرون الى عصر جديد سيسطع فيه على الارض نور السماء • اعرف مبادءك وافكارك واعرف سلطتك على زملائك المزارعين وعلى هذه الطبقة النشيطة طبقة الصناع والزراع فاجتهد بان تغرس في عقولهم جميعاً مبادىء الاخلاص والاخاء التي عرفتها فيك • الفلسفة اليوم عمومية وعلى نورها العظيم يجب ان يقرأ الناس واجباتهم وحقوقهم • وقد قدمت لك كراساً يحتوي على تلك الحقوق والواجبات فانشر مبادئه بين الناس فانها مبادئ العدل والمساواة والحرية • اقرأه جهراً على اصحابك ومرؤوسيك في ليالي الشتاء الطويلة فان القراءة غذاء للنفس كما ان الطعام غذاء للبدن

ساجيئك قريباً فاطامك على طريقة الزراع الاميركيين في اقتسام ريع الارض بين العامل والمالك فانها اكثر انطباقاً من طريقتنا على النواميس الطبيعية وارادة الله

حب واخاء وسلام

« الدكتور جيلبار»

فلما فرغ بيتو من تلاوة هذا الكتاب قال بيلو افهمت الآن السبب الذي يحملني على ابقائك عندي

قال لا

قال هو العمل بما اوصاني به الدكتور من نشر مبادىء هذا الكراس الذي ذكره في كتابه • قال هذا واخرج من جيبه كراساً ودفعه الى بيتو قائلاً — اقرأ عنوانه يابيتو

فقرأ بيتو على ظهر الكراس ما ياتي « استقلال الانسان وحرية الامم » وكان هذا الكراس كسائر الكراريس الصغيرة التي كانت تصدر في ذلك الزمان برخصة من الحكومة ومن غير رخصة ايضاً • انما كان المؤلف في الحالة الثانية يلقى السجن عقاباً اذا عُرف اسمه

فقال المسيو بيلو : فوظيفتك عندنا يابيتو ان تجلس الينا في السهرات فتتلو علينا هذا

الكراس وتشرحه لنا وفي النهار نتولى رعاية المواشي

وكانت كاترين الى هذا الوقت مبهوتة ساكتة فقالت لابيها — رجعنا يا ابتاه الى المسئلة المعهودة . رحماك يا ابتاه لا تعرض نفسك فاني اخاف عليك شرًّا . قلت انه وردك كتاب من الدكتور . وانا ايضًا وردني كتاب آخر

قال بيلو ممن

قالت من سباستيين ابن الدكتور جيلبار

قال بيلو وماذا يقول في هذا الكتاب

قال يقول انه بانتظار والده وقد انقضت ثلاثة ايام على ميعاد حضوره ولم يحضر بعد

قال فماذا تستنتجين من ذلك

قالت اخاف ان يكون قد اصابه شر فأتي نوبتك بعده

فقال بيتو صدقت السيدة ياسيدي

قال بيلو اصمتا واتركا الخوف . الفلسفة اصبحت كما قال الدكتور عمومية . وعلى نورها العظيم يجب ان يقرأ كل منا حقوقه وواجباته من غير خوف ولا جبانة

. . . .

وكان الشعب يقول هذا القول وهم في عشية ذلك اليوم العظيم الذي نسخت فيه الامة الفرنسوية تاريخ رومه واثينا صفحة صفحة مدة عشر سنوات كاملة

الفصل الخامس

(رعاية المواشي)

فبقي بيتو يفكر كل تلك الليلة بهاتين المسألتين « تلاوة الكراس في الليل . ورعاية المواشي في النهار »

اما الامر الاول فكان يطير فرحًا كلما تامله ونظر فيه لانه نوع من التعليم والخطابة . لكنه كان يغص بريقه كلما تامل الامر الثاني اعتبارًا ان حرفة الرعاية ادنى من حرفة التعليم بدرجات كثيرة

الا انه رجع الى نفسه فراى في ما درسه في المدرسة ان رعاية المواشي كانت من حرف الآلهة وانصاف الآلهة

فان الاله ابولون لما طُرد من الاوليمب كما طُرد بيتو من بيت عمته صار يرعى مواشي

الملك ادميت · نعم ان ادميت كان ملكاً غير ان ابولون كان ايضاً الهاً

والبطل هرقل عمل ما يقرب من رعاية البقر · فانه فيما رواه التاريخ الخرافي كان يجر بقر جاريون من اذنابها · وسواء كان يجر الانسان البقر من رؤوسها او من اذنابها فانه يدعى (بقاراً) اي راعياً للبقر

وهذا تيتيروس الذي روى فرجيل قصته الجميلة وتفيأه في البراري ظل الاشجار وانشاده تحتها الابيات الرقيقة السحرية التي كان يغبط نفسه فيها لهذه السعادة التي نالها من اغسطس كان راعياً ايضاً · وماليباي رفيقه الذي كان يبكي وطنه ويذكر بعده عنه بشعر رفيق انيق كان راعياً ايضاً

كل هؤلاء كانوا يعرفون من اللغة اللاتينية ما يتيح لهم ان يكونوا رهباناً ولكنهم كانوا مع ذلك يختارون رعاية المواشي على سائر الاعمال والحرف · فلا بد اذن ان يكون لرعاية المواشي مزية خاصة بها تصرف الافكار والاميال عما سواها · فاذا كان ذلك كذلك فلا عار من حرفة الرعاية على بيتو ولا خوف منها على شرفه لانها حرفة الآلهة وانصاف الآلهة

بمثل هذا الكلام كان بيتو يعزي نفسه ويسليها · وما كان ينزل بالفكر الى حرفة الرعاية بل كان يرفعها اليه

وفضلاً عن ذلك فان رعاية المواشي من الشؤون الموضوعة تحت مناظرة مدموازل كاترين ولا خوف على بيتو ان يضجر او تنحط كرامته من عمل متعلق بكاترين الجميلة

الفصل السادس

(ساقان لا تصلحان للرقص)

وفي صباح اليوم الثاني جاء بيتو كاترين وسالها ان تسلمه المواشي لرعايتها فاجابته — دع هذا عنك

ففتح بيتو فاه وقال لماذا

قالت لانني اقنعت ابي بان هذه الحرفة احط منك شاناً · وبدلاً من ذلك امسك دفاتر المزرعة فتكفيني هذا العناء

ففرح بيتو وقال لها — وماذا تعملين انت اذا تركت مسك دفاتر المزرعة

قالت اتسلى بعمل قبعات جميلة

قال وما حاجتك الى القبعات الجميلة وانت بهذا الجمال

قالت مبتسمة : لا تمدح يابيتو · اما القبعات فلكي اذهب الى فيلله كوتريه للرقص في يوم الاحد · هل تحسن الرقص يامسيو بيتو

فنظر بيتو الى ساقيه الطويلتين الدقيقتين وركبتيه الضخمتين فادركت كاترين مراده وقالت · اذا كنت لا تحسن الرقص فتعلم ان ترقص

فقال وهل ترقصين وحدك ايتها السيدة

قالت كلا وانما ارقص مع اجمل شاب وابرع رقاص في هذه الناحية

فاضطرب بيتو وقال من هو هذا

قالت هو المسيو دي شارني صاحب القصر الذي في جوار هذه المزرعة · وساذهب بك في يوم الاحد القادم الى فيلله كوتريه فاريك رقصي ورقصه

فقضى بيتو ذلك النهار راضياً وساخطاً معاً · اما رضاه فلخلاصه من رعاية المواشي واما سخطه فلقول كاترين « انها ترقص مع اجمل شاب وابرع رقاص في تلك الناحية »

فنام تلك الليلة فرأى في نومه المسيو دي شارني يرقص رقصاً قبيحاً فهزأ به في نومه

. . . .

وفي مساء يوم السبت دعا بيلو رجاله واصحابه الى حضور قراءة كراس الدكتور في صباح يوم الاحد التالي · وكان لبيلو زوجة بسيطة القلب ساذجة الفطرة فحاولت تذكيره بان من العملة من لا يستطيعون الحضور في ذلك الميعاد لانهم يكونون في القداس فرفع بيلو صوته صارخاً : — اما استماع كراس الدكتور واما الخروج من المزرعة بالحال · فاني اريد ان اقيم مذبحاً للفلسفة بازاء مذبح الكنيسة · اما النساء فليذهبن الى الكنيسة اذ لاغنى لهن عن الدين

فسكتت مدام بيلو لانها كانت تعرف اخلاق زوجها وفي صباح ذلك اليوم نصبوا برميلاً في مكان عميق داخل المزرعة فجلس عليه بيتو وفي يده كراس الدكتور · واخذ العملة يتقاطرون الى ذلك المكان حتى غص بهم وارتفعت ضوضاؤهم

وكان الشعب في فرنسا في ذلك الزمن زمن الاستبداد والاستعباد تغلي دماؤه بتلك الحمى الشديدة التي تعرو الامم لما تكون على اهبة النهوض · فقد كانت الافواه تلفظ كلمات غريبة جديدة لم تعرفها الى ذلك الوقت والجباه الشامخة من الكبر والرؤوس المحنية من

الضعف والشقاء تهب عليها ريح شديدة ترفع هذه وتخفض تلك ٠ وكانت الاجتماعات السياسية كثيرة ورجال لا يعرف لهم اصل ولا منبت خرجوا من اماكن مجهولة وجعلوا يطوفون المدن والقرى كرسل اله غير منظور داعين الناس اليه وناشرين كلمة الحرية ٠ اما الحكومة الفرنسوية فقد كان على عينها في بدء الامر غشاء يمنعها ان ترى هذه الحركة الهائلة ثم سقط هذا الغشاء فادركت وجودها بما راته من المقاومة ٠ وكانت هذه المقاومة في بدء الامر « بالفكر » اذ لم تكن اتت نوبة النعل بعد ٠ وكانت خفية الا انها كانت كانها ظاهرة ٠ فان شبحها كان منصوباً ولا سبيل الى قبضه والوصول اليه كاشباح الاموات تراها ولا تستطيع وصولاً اليها

ولما دخل بيلو في صباح الاحد مكان الاجتماع وجد فيه ٢٥ رجلاً من رجاله فهتفوا له هتافاً شديداً ثم جلسوا واصغوا الى بيتو فاخذ يتلو عليهم كراس الدكتور

وكانت افهام الحاضرين تقصر عن ادراك معاني هذا الكراس الفلسفية الا انه كان يمر في عرض الكلام من حين الى حين كلمات « الاخاء ٠ العدل ٠ الاستقلال ٠ المساواة » فكانت كأنها بروق تخفق في ظلمة افكارهم فيهتفون ويتحمسون اشد تحمس ويصرخون عاش بيلو عاش الدكتور جيلبار

ولما اتى بيتو على تلاوة نصف هذا الكراس اوقفه بيلو وامره ان يترك ما بقي الى الاحد القادم وانفض الجمع ونفوسهم في اشد درجات الهياج والتأثر

وفاز بيتو هذه المرة فوزاً عظيماً فهنأه المسيو بيلو بقوة صوته وحسن القائه وشكره الجميع على سعة علمه ولم ينقص سعادته في ذلك اليوم الا وجود مدموازل كاترين لتسمع ثناء الناس عليه

وفيما هم خارجون من مكان الاجتماع لقيتهم كاترين فابلغها بيلو نجاح بيتو في عمله فابتسمت كاترين ابتسامة ظنها بيتو له فتمشى لها قلبه في صدره ٠ وفي الحقيقة ان هذه الابتسامة كانت لابيها بيلو ٠ وقد فهم ذلك منها بيلو فقال مالك تبتسمين يا كاترين قالت رحماك يا ابتِ كن على حذر

قال رجعنا الى الخوف والجبانة

قالت ابتِ قيل لي ان ابلغك انهم يراقبونك

قال ومن قال لك ذلك

قالت احد الاصدقاء ٠ قال اشكر لهذا الصديق عنايته ولكن احب ان اعرف اسمه

لاعرف قدر نصيحته

قالت اسمه المسيو ايزيدور دي شارني

فرفع هنا بيلو بيتو رأسيهما وصاح بيلو بغضب ٠ من اين لهذا الرجل المداخلة في شؤوننا ٠ اكلفناه نحن ان ينصحنا

قالت عفواً يا ابت ما قلت ذلك لاسخطك

قال ولدي انا نصيحة اليه ايضاً ٠ وهي ان يكون على حذر فان المجمع الوطني يصدم اليوم الاشراف صدمات شديدة ٠ وكثيراً ما دار البحث فيه على المقربين الى النمساوية فليعلم ذلك شقيقه المسيو اوليفيه دي شارني اقرب المقربين اليها

وكان بيلو يعني بالنمساوية الملكة ماري انتوانت زوجة الملك لويس السادس عشر الحاكم في ذلك الزمان

وكان بيتو لا يزال يذكر قول كاترين عن رقص المسيو شارني « اجمل شبان الناحية » فقام الغيظ في نفسه مدفوعاً بعامل الغيرة فصاح بعد صياح بيلو

— ما شان هذا الرجل ومن اين له المداخلة في امورنا ٠ فلم تجب كاترين بشيء

وبعد تناول طعام الغداء لبث بيتو ينتظر ان تنجز كاترين وعدها فتأخذه الى فيلله كوتريه معها لحضور حفلة الرقص ٠ وفي الساعة الثالثة بعد الظهر دعته كاترين اليها وناولته ذراعها للخروج بها الى فيلله كوتريه

فطار قلب بيتو فرحاً ٠ وكانت كاترين قد لبست اجمل حللها ووضعت على رأسها القبعة الجميلة التي تكلمت مع بيتو عنها فكان عليها من البها والسناء ما كاد يذهب بعقل بيتو

وكان بيتو يمشي الى جانبها وهو يرفع راسه تيهاً ونخراً ٠ وكاترين بجمالها الفتان تمشي الهوينا وفي نظرها الحنو وفي فمها ابتسامة لطيفة كأنها السحر الحلال كانت تقابل بها جميع مخلوقات الله في ذلك اليوم الجميل

ومرّا اولاً بمتنزه خال من الناس وفيه رواق جميل فود بيتو الاقامة مع كاترين في ذلك الرواق بعيدين عن اعين الناس من غير ان يعلم سبباً لرغبته ٠ الا ان كاترين لم تتزين بهذه الزينة الجميلة التي بهرت عيني بيتو حتى تقيم في هذا الانفراد بعيدة عن عيون الناس

٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

ان النساء كالازهار التي تنبتها الصدفة في الظل ٠ فانها لا تنفك منحرفة الى جهة النور

حتى تبلغه فتفتح لحرارة الشمس اوراقها الرطبة الذكية فتلفحها الشمس وتذويها ولا يستثنى منها الا البنفسجة فانها لاتضاعها تستتر كما يقول الشعراء بين الاعشاب. ولكن ألا تراها تلبس الحداد على جمالها الذاهب ضياعاً

. . . .

ورقصت كاترين في ذلك النهار مع « اجمل شبان الناحية وابرعهم في الرقص» سيو دي شارني . فلما رآها بيتو وهي ترقص مع ذلك الشاب الجميل الغني الشريف انصدع قلبه و بلل العرق جبينه وخار عزمه واصطكت ركبتاه فمد يده الى الوراء يلتمس شيئاً يستند اليه . ولبث كأنه على عينيه غشاوة ينظر الى كاترين ترقص بين يدي ذلك الشاب الجميل وقد صارت فضتها النقية عسجداً . فهل ذلك عن خجل من دي شارني . ام عن حياء من بيتو . ام ذلك فعل كلمة يهمس بها اليها في اذنها او ضغطة لطيفة يضغطها على يدها

لم يعلم بيتو شيئاً من ذلك. وعند المساء عاد من حفلة الرقص يتعثر بهباء الهواء والحزن يملأ صدره في ايابه بمقدار ما ملأت المسرة قلبه في ذهابه . وقد لحظت كاترين ذلك فاجملت ملاطفته وعرضت عليه ان تعلمه الرقص لترقص واياه في الاجتماعات التالية فاجابتها بمرارة وألم « لاتصلح ساقاي للرقص يامدموازل كاترين »

الفصل السابع

(اذا كانت ساقاه لا تصلحان للرقص)

(فهما تصلحان للركض)

بات بيتو في تلك الليلة قلقاً مضطرباً . فقد حدث في داخله انقلاب شديد في تلك الساعات القليلة التي قضاها خارج المزرعة وفقد شيئاً لايعود للانسان متى فقده وهو: حسن ظن الانسان بنفسه

ولم يكن النوم يجد سبيلاً الى جفنيه فجعل ينقلب على فراشه ويراجع في ذهنه حوادث نهاره . فذكر كتاب الدكتور وما قرأ فيه . وكان جل الكتاب ان لم يكن كله سهاماً مصوبة الى الاشراف واستبداد الطبقات الممتازة وجبانة الذين يحتملون هذا الاستبداد بدناءة وضعف . فظهر لبيتو بعد ما رآه في مساء يومه من خطف المسيو دي شارني كاترين من

بين يديه انه اصبح اشد نهماً لموضوع الكراس فعزم على مراجعته متى طلع الصباح

ولكنه استغرق في النوم لشدة ارقه تلك الليلة فلم ينهض من الفراش الا في الساعة السابعة فتناول الكراس وذهب الى مقعد تجاه نافذة مدموازل كاترين

فهل كان جلوسه على هذا المقعد اتفاقاً ام كان يعلم موقعه من نافذة كاترين ؟

ولما جاس فتح الكتاب واخذ ينظر فيه · وغني عن البيان انه القى قبل ذلك نظرات الى نافذة كاترين ولما لم يجد فيها شبحاً يلوح قصر نظره على الكتاب الذي في يده

ولبث ناظراً اليه مدة طويلة دون ان يقلب صفحة من صفحاته مما يبعث على الظن انه كان يتأمل لا يقرأ

وبينما هو غائص في التامل والتفكير رأى ظلاً على كتابه · وكان الظل كثيفاً فما هو اذاً ظل سحابة بل ظل جسم كثيف · ومن الاجسام الكثيفة ما ترتاح العين اليها كجسم مدموازل كاترين مثلاً · فالتفت بيتو ليرى صاحب هذا الظل

وقد اخطأ بيتو فان الذي حجب عنه النور كما حجبه يوماً اسكندر عن ديوجينوس لم يكن كما ظن شخصاً ترتاح العين الى منظره

فانه كان رجلاً اشد طولاً من بيتو على طوله واشد نحافة منه على نحافته · وكان هذا الرجل يناهز الخامسة والاربعين بملابس سود تكاد تكون بالية وكان منحنياً فوق الكتاب الذي في يد بيتو

فاخذت الدهشة من بيتو كل ماخذ فلبث صامتاً مبهوتاً · اما الرجل الاسود فابتسم ابتساماً ظريفاً بان من تحته فراغ فمه من الاسنان وقال بهيئة المزاح ناظراً الى الكتاب

— استقلال الانسان وحرية الامم · طبع في اميركا مدينة بوسطن سنة ١٧٨٨

فاجاب بيتو وقد بلغ منه العجب مبلغه — نعم هو هكذا ياسيدي :

ثم انتصب قائماً لانه تعلم في المدرسة ان لا يكلم وهو جالس شخصاً اعظم منه شاناً · وكان لسذاجته وضعفه يرى كل الناس افضل منه واعظم شاناً

فوقع نظره حين نهوضه على شبح يلوح ويختفي في نافذة مدموازل كاترين فحدق النظر فرأى كاترين تنظر اليه نظرات ذات معنى لم يفهمه وتشير اليه اشارات غريبة

اما الرجل الاسود فلم يرَ شيئاً من ذلك لان ظهره كان الى النافذة و وجهه الى بيتو · وبعد ان فحص الرجل بيتو بنظره ملياً قال مشيراً الى الكتاب — لمن

هذا الكتاب

فسمع بيتو من صوب نافذة كاترين صوتاً ضعيفاً يقول : « قل انه لك » . اما الرجل الاسود فلم يسمع شيئاً لانه كان كله اعيناً ترى بيتو وتتفحص هيئته

فاجاب بيتو رافعاً راسه — هو لي

فقال الرجل الاسود — اذن فانني القي القبض عليك

فصاح بيتو ملء فمه — عليّ انا ؟ فقال الرجل نعم فاتبعني

وفي الحال ظهر رجلان من رجال البوليس كانهما خرجا من الارض اوهبطا من السماء فوقفا ينتظران امر الرجل الاسود فاشار اليهما ان يلقيا القبض على بيتو المسكين فهجما عليه لشد يديه بالحبال فاخذ يدافعهم وهو يصيح ويستغيث . ونظر الى نافذة كاترين فرآها تشير اليه ان يسكت ويدعهم وشأنهم فسكت بيتو وسكن فشدوا يديه بحبل تخين ثم ربطوه من وسطه بحبل آخر في حلقة من حديد تحت نافذة كاترين . وتركوه ودخلوا المزرعة ليكتبوا بياناً بتفصيل الحادثة

وما غابوا عن النظر حتى سمع بيتو قائلاً يقول له من فوق راسه « ارفع يديك » فرفع عينيه فراى كاترين وعلى وجهها اصفرار الخوف والجزع وفي يديها سكين . فرفع يديه الى النافذة وكانتا طويلتين كما نعلم وتدلت كاترين من النافذة حتى مسّ حد سكينها الحبل الذي يربط يدي بيتو فانخرط الحبل وانطلقت يداه فناولته السكين وقالت اقطع بها الآن الحبل الذي يشدك من وسطك فقطعه بيتو كلمح البصر فقالت له كاترين باضطراب « اسمع الآن : خذ هذين الذهبين وفر ركضاً الى باريز فانظر الدكتور جيلبار وحدثه بما رايت »

ثم القت اليه ذهبين . واذا برجلي البوليس قد ظهرا في الباب فعرتهما الدهشة لرؤيتهما بيتو مطلقاً . واخذ الخوف من بيتو كل ماخذ فلبث واقفاً كما يقف الارنب تجاه كلب الصيد اذا اتاه على حين غفلة . وكما يفر الارنب عند اول حركة يتحركها الكلب هكذا فرّ بيتو عند اول حركة تحركها الرجلان نحوه فانه وثب وثبتين ابعدتاه عن الرجلين بعداً كافياً فاطلق عند ذلك ساقيه للريح

فصاح الرجلان به صيحة واحدة فسمع الرجل الاسود صياحهما فخرج مسرعاً وبين يديه « صندوقة صغيرة » فراى بيتو راكضاً فلم يضع الوقت بالكلام بل اخذ يعدو وراءه بكل قواه فتبعه الرجلان ركضاً

فكانوا مع بيتو كارنب يسابق طيرًا · فانه كان يعدو كالجواد اذا سبح او الطير اذ طار وهم وراءه جادون · وبلغ بيتو سياجًا فوثب من فوقه وراح يهزأ بهم · اما طالبوه فانهم التمسوا الباب اذ لم يستطيعوا وثب السياج · ولما خرجوا من الباب ابصروا بيتو في السهل البعيد كانه السهم المارق « تكاد قدماه تصلان الى راسه »

فالتفت بيتو اليهم فرآهم يركضون متثاقلين لراحة ضمائرهم لا لادراكه فعلم انه نجا بنفسه فشدد عزمه ووسع خطاه حتى بلغ الغابة فتوارى عن ابصارهم

الفصل الثامن

(لماذا قدم الرجل الاسود الى المزرعة)

غاب الرجال الثلاثة عن نظر كاترين التي كانت تراقبهم من النافذة فنزلت صفراء اللون الى غرفة في المزرعة وفتحتها

وكان ابوها بيلو في هذه الغرفة سجنه فيها الرجل الاسود

فخرج بيلو منها خروج الاسد من عرينه وهو يرغي ويزبد من الغضب ويقول

— ما سمعنا مثل هذا · ماذا يريدون من مزرعتي · قالوا انهم قادمون من قبل الحكومة والملك · فاي شان للملك عندي وما الذي جعله يفتكر الآن بي · اين كان الملك لما نزلت بنا المجاعة في السنة الماضية واشتدت علينا حتى كدنا ناكل خيولنا · اين كان الملك لما اتلف البرد في ١٣ تموز كل مزروعاتنا · يومئذٍ لم يتنازل الملك الى السؤال عنا والافتكار بنا · فماذا يريد اليوم منا · اين اللصوص الذين قدموا لتفتيش مزرعتي يا كاترين

فقصت عليه كاترين كلما حدث بينهم وبين بيتو · وكانت مدام بيلو مبهوتة تنظر في اثاث المنزل المنبوش في ارض الغرف · وجعلت تتأسف وتقول · نبشوا كل شيء حتى خزانة ملابسي

فلما وقعت في اذن بيلو هذه الكلمة « خزانة ملابسي » قدحت عيناه شررًا وصاح هل نبشوا خزانة الملابس

ثم اندفع يريد الخزانة · وكان الرجل قد اغلقها بتأن بعد ان قضى منها وطره · ففتحها بيلو بعنفٍ ونظر الى زاوية منها فاقشعر جلده ولطم جبينه بيده صائحًا

— لا اظن ذلك ممكنًا

فدهشت كاترين وسالته ما بك يا ابتاه

فالتفت بيلو بذهول واضطراب قائلاً — فتشي معي . فتشي عنها عساك ان تجديها. انظري لعلها في الصندوق . بل انظري في الخزانة الثانية .. لالا بيدي هذه وضعتها في هذه الزاوية . وامس نظرتها ويلاه . اذن لم يات اولئك الاشقياء في طلب الكتاب كما قالوا بل جاؤا في طلب « الصندوقة »

فقالت كاترين مذعورة اي صندوقة يا ابت

قال . اف الا تعرفينها فقالت مدام بيلو . لعلك تريد صندوقة الدكتور جيلبار

فصاح بيلو نعم صندوقة الدكتور جيلبار . اين هي الآن

نخافت كاترين على عقل ابيها فقالت متلطفة رحماك يا أبت خفف من غضبك

فصاح بيلو بصوت كالرعد القاصف . ماذا يقول عني الدكتور غدًا سقول اني خائن دنيء لا احفظ عهدًا . وعدته ان احافظ على هذه الصندوقة حتى الموت وها هي قد فرت من يدي

قالت وماذا تحتوي هذه الصندوقة قال لا اعلم وانما اعلم انه كان يجب ان أقتل قبل ان تؤخذ من مزرعتي

ثم ظهرت في وجهه علامات الغضب واليأس البالغ حده وقدحت عيناه شررًا يقرب من شرر الجنون نخافت كاترين واجهشت بالبكاء ثم صاحت

— رفقًا بنا وبنفسك يا ابت

ففتح بيلو فمه وقال بصوت نخيف . عليَّ بالجواد . علي بالجواد

فقالت كاترين الى اين يا ابت . بالله عليك الى اين

قال بصوت مرتجف الى حيث اجد الدكتور . عليَّ بالجواد علي بالجواد

قالت نتركنا وانت على هذه الحال يا ابت . وماذا يحل بنا بعدك . فاثر كلامها في قلب بيلو فتغيرت ملامح وجهه فاخذ راسها بين يديه وقبله ثم قال لها

هذه واجباتي يابنية فقد قال لي الدكتور يوم اودعني هذه الصندوقة : « اذا فقدتها يابيلو باية طريقة كانت فلا يهدأ نَّ لك بال قبل الوصول اليَّ لابلاغي خبر فقدانها ولو كلفك ذلك سفك الدماء »

فقالت كاترين مدهوشة وماذا تحتوي يا رباه هذه الصندوقة

قال لا اعلم · ها قد جاء الجواد · استودعكما الله

قال هذا ووثب الى ظهر الجواد واعمل في بطنه المهماز فانطلق في طريق باريز ينهب الارض نهباً

الفصل التاسع

(على طريق باريز)

فلنرجع الآن الى بيتو

كان بيتو يركض مدفوعاً باكبر عوامل هذه الحياة وهما : الخوف والحب

اما الخوف فكان يقول له — : طر كالطير والا امسكوك وضربوك يابيتو

واما الحب فكان يقول له على لسان كاترين — : انجُ بنفسك من اجلي يابيتو

ولذلك ما كان بيتو يركض ركضاً بل يطير طيراناً

ما اعظم اعمالك يارب · ساقاه لم تصلحا للرقص فكرههما واحتقرهما في حفلة الرقص في فيلله كوتريه اما الآن فانهما انقذتاه من طالبيه

وظل يركض وهو يحسب انهم لا يزالون يطلبونه حتى قطع الغابة التي دخل فيها وننفذ الى الطريق المؤدية الى باريز · فوقف قليلاً يتنفس الصعداء · وكانت قد انقضت عليه ساعة وهو يركض فاجتاز نحو ١٨ ميلاً وهو معظم ما يقطعه جواد قوي يسير خبباً

ووقف وقلبه مملوء ذعراً وخوفاً من رجال البوليس الذين رآهم يتعقبونه · فنظر الى الوراء ليرى اذا كان احد يتبعه فلم يجد احداً على الطريق · نظر الى الامام فابصر حمارين فوقهما امرأتان

وكان بيتو قد درس شيئاً من خرافات الاقدمين (الميتولوجيا) لانها كانت في تلك الايام قسماً من دروس المدارس فكان اذن عارفاً بعض المعرفة بآلهة الاوليمب · كان يعلم ان جوبتير اله الآلهة اتخذ يوماً جسم ثور ليستميل (اوروبا) اليه · (١) واتخذ ايضاً مرة



(١) جوبيتير — كبير آلهة اليونان والرومان · غلب اباه ساتورن على الملك فتولاه واعطى نبتون ملك البحر وبلوتون ملك الجحيم واخذ لنفسه ملك السماء والارض · زوجته جونون ابنة ساتورن فهي اذن اخته وتدعى الهة الزواج · وهذا الرسم رسم التمثال البديع الذي اقامه له

اخرى جسم بطة ليداعب ابنة تيندار مداعبة غير ادبية ثم ان يتو ذكر ان آلهة كثيرة كانت تتخذ هيئات مختلفة بعضها حسن والاخر قبيح ولكنه لم يرَ ولم يسمع قط ان رجلاً من رجال البوليس اتخذ صورة حمار فاستبعد ان يكون هذان الحماران رجلي البوليس اللذين يتعقبانه تخفياً في جلد حمار لامساكه فسكن روعه وجلس على العشب وهو يمسح بكمه العرق عن وجهه

وكان قد تعب تعباً شديداً والعادة انه لا يأتي التعب الا ويأتي الجوع . فجاع يتو . فذكر حينئذٍ مائدة المسيو بيلو وطعامها الشهي وكرم كاترين ولطفها . فشق عليه مفارقة هذه السعادة وكما يلتفت ابناء اسرائيل على ضفاف الاردن ويلقون الى المشرق حيث المدينة المقدسة نظرة حشوها الحسرة واليأس هكذا التفت يتو الى المشرق حيث مزرعة الاب بيلو وتنهد من اعماق قلبه

ثم نهض واستأنف السير بخطى واسعة وان كان قد سكن روعه وكان يستطيع بهذا السير ان يقطع في الساعة ٨ اميال

وبعد مسير ساعتين اجفل لصوتٍ كوقع حوافر فرس على بلاط الطريق فالتفت مذعوراً فلم يرَ شيئاً فعلم ان اذنه خدعته فعاد الى السير مطمئن النفس واخذ يفكر بما جرى له في ذلك النهار: من هم هؤلاء المردة السود الثلاثة الذين اوثقوه ثم تعقبوه ؟ ولماذا اتوا الى المزرعة ؟ وكيف دخلوا ولم يرَهم احد حتى الكلاب والا فانها كانت على الاقل نبحت عليهم

فيدياس اشهر نحاتي اليونان في هيكل اوليمبيا وهو احدى العجائب السبع راجع ما ورد عنه في الجامعة الصفحة ١٧٨ من القسم الاول

اما اوروبا فهي في خرافات اليونان ابنة اجينوروس ملك فينيقية اختطفها جوبيتير لجمالها وذهب بها الى كريت فولدت منه فيها ملكهامينوس المشهور بحكمته عند اليونان وهو احد قضاة الجحيم . وهكذا كان شان اليونان الاقدمين فانهم كانوا يوصلون الى الآلهة نسب كل حكيم او بطل ينبغ عندهم



— رسم اسكندر دياس الكبير مؤلف هذه الرواية التاريخية ومئات غيرها من الكتب والروايات المشهورة في جميع اقطار الارض . ونغتنم هذه الفرصة للتصريح باننا لا نلتزم الاصل في التعريب الا فيما يتعلق بالحوادث التاريخية التي يسردها المؤلف وذلك رغبة في الاختصار

الا ان بيتو ما اتم تأمله هذا حتى وقع في اذنه مرة ثانية صوت حوافر الفرس الذي سمعه اولاً · فالتفت مذعوراً · ولكن لم تكن قد خدعته اذنه هذه المرة فانه ابصر على مسافة اربعمائة قدم فارساً على جواد ينهب الارض نهباً

فجرى الدم بارداً في عروقه · وكان لم يصدق ان رجل البوليس ينقلب حماراً ليكمن له و يمسكه ولكن ما الذي يمنع رجل البوليس ان يمتطي جواداً ليدرك من عجزت الاقدام عن ادراكه

قال هذا وشعر بان قوته قد عادت من الخوف اليه فحاد عن الطريق على عجل ووثب الخندق الذي على موازاتها واطلق ساقيه للريح في وسط السهول · وكان خصمه هذه المرة جواداً لا رجلاً فكان يعدو باشد قوته · ثم التفت بعد قليل نظرة الى الوراء فابصر الفارس يثب بجواده الخندق الذي وثبه بيتو فلم يبقَ عنده شبهة في انه يطارده · فقال لساقيه الطويلتين : هذه ساعتكما · واندفع يركض بما اعطاها الله من القوة

ومما كان يزيده اندناعاً في ركضه ما صار يسمعه من صوت الفارس وهو صوت جهوري ينتهي بهذا الصوت « هو » او « تو » فقال في نفسه هذا صوت غضبه وحنقه اعوذ بالله من هذا الشيطان الرجيم

لكنه بعد ركض عشر دقائق ضعفت قواه ونفد عزمه واضطرب نظره فاصبح لا يرى الطريق وصار يرى ان ركبتيه قد تضخمتا تضخماً غريباً وصارت قدماه تزحفان على الارض زحفاً · وكان الفرس لا يزال ينهب الارض وراءه وفارسه ينادي نداء اصبح مسموعاً وهو « بيتو · بيتو »

وبما ان الفرس قد اعطي ان يكون في قوائمه ارقى من الانسان في ساقيه فما عتم ان اصبح الفارس قريباً من بيتو · فقال بيتو المسكين في نفسه لقد قضي عليَّ · الوداع يا كاترين

وكان لا يزال يركض بقوة الاستمرار الا ان ساقيه ضعفتا بعد قليل واصطكتا تحته فسقط على التراب ممدداً على بطنه وهو يتنهد تنهداً عميقاً

فاتته في الحال ضربة سوط على كتفه قلبته على ظهره وسمع صوتاً جهورياً يقول —

ومراعاة الزمان والمكان · واذ والى القراء مطالعة الحوادث المقبلة بالانتباه اللازم للحوادث التاريخية العظيمة رأوا فيها من صحة التاريخ عظمة الحوادث وفكاهتها ما يكون جديراً بانتباههم · ولا سيما الرسوم التاريخية والملاحظات التي ننشرها في ذيلها كما يرون في هذه الملزمة

فيحًا لك فقد اهلكت الجواد

فرفع بيتو راسه لهذا الصوت صائحًا : هذا انت يامسيو بيلو

وكان الفارس هو المسيو بيلو بعينه وتحته جواده كاديت يغطيه العرق

فقال بيتو — شكرًا لك ياسيدي · اظنك خرجت في طلبي لارجاعى الى المزرعة · لا تقلقن بالك يامسيو بيلو فانني لا اغيب عنها وقتًا طويلاً

قال واين رجال البوليس

فحملق بيتو بعينيه وقال رجال البوليس ؟ وهل تظنني اقضي وقتي في انتظارهم · فقد تركتهم وراءي من زمان طويل

قال فقم معي على عجل فاني قاصد باريز · قال وما تصنع هنالك · قال قم فان الليل اسود مدلهم والزوبعة قريبة والفجر لا يلبث ان يطلع على العالم

قال بيتو مدهوشًا · ما هذا الكلام ياسيدي فاني ارى الوقت نهارًا

قال بيلو ساشرح لك ذلك في باريز قم فاني احتاج اليك فيها · اركب وراءي على كاديت فنصل الى دامارتين ونغيره فيها فانه قد اعياه التعب ثم نسير في طريقنا

قال هذا واخذه بيده ثم رفعه كما يرفع كيسًا خفيفًا واردفه وراءه

الفصل العاشر

(ما كان جاريًا في باريز)

وصار بيلو قريبًا من باريز عند هبوط الظلام فابصر عندهما من بعيد نورًا يلوح ويختفي فنبه بيتو الى هذا النور فاجاب انه على الغالب نار جنود معسكرين هناك · فقال بيلو وما تصنع الجنود هنالك · قال تصنع ما تصنعه الجنود التي هنا · واشار الى السهل القريب من الطريق

فمد بيلو نظره الى حيث مدّ بيتو اصبعه فرأى في ظلام الليل فرقًا سودًا من الجنود تسير في السهل سيرًا بطيئًا واشعة النجوم الضئيلة تنكسر على سلاحها · ثم امعن النظر فابصر مدافع تُجرُّ بازائها فهزّ راسه وقال :— اذن كان قدومنا في حينه فان ما نراه يدلنا على حدوث امر ذي بال

وكان بيتو يحدق في النور الصاعد من جهة باريز فما لبث ان صاح قائلاً — ليس ما رأيناه نورًا بل نارًا والدليل تطاير الشرر منها

فوثب بيلو عن الجواد واتجه صوب جماعة من الجنود رآهم مخيمين تحت اشجار الطريق وملابسهم زرق وصفر فسألهم . هل لكم يا صحاب ان تخبرونا عما حدث في باريز

فسمعهم بعد سؤاله يطمطمون بلغة غريبة لا يفهمها فعلم انهم غير فرنسويين . فاعاد عليهم سؤاله متلطفاً فاجابه احدهم بكلام تخالطه العجمة . — مرّ سي طريقك . امش

فقال بيلو ولكني اردت ان اسألكم هل الطريق مفتوحة فنستطيع الدخول الى باريز

فاجاب الصوت — مفتوحة مرّ في طريقك . امش

فعاد بيلو يتلهب غيظاً ويلوم نفسه على انه خاطب هؤلاء الاجانب

ثم استانف السير فدخل بلدة بورجه القريبة من باريز فرأى فيها فرساناً وطنيين فقصدهم بيلو وسالهم — ما وراءكم ايها الاخوان من اخبار باريز

فاجابه احدهم . قد اصيب اصحابك الباريزيون بداء الكلب والجنون فانهم يطلبون الوزير ناكار ويرموننا بالرصاص كاننا نحن نولي ناكار ونخلعه

فسأل بيلو متعجباً وهل عزلوا ناكار . فاجاب نعم عزله الملك بل طرده طرداً وامره ان يرحل من باريز على عجل فهو الآن في بروكسل

فصاح بيلو بصوته الجهوري . طرد الملك ناكار . طرد الملك هذا الرجل العظيم . سنرى ذلك في باريز

ثم وثب على ظهر الجواد واعمل المهاز في شاكلته فسار بما بقي له من القوة . ومن التهور ان بيلو صاح هذا الصياح على الملك وهو لا يذكر انه في وسط جنود من اشد الناس اخلاصاً للملك والملكية

وكان كلما اقترب من باريز رأى النار تزداد دائرتها اتساعاً ولهيباً عظيماً يتصاعد من جانب الحاجز الخارجي . فاخذ بيلو السير حتى بلغ هذا الحاجز

فابصر عنده جماهير من الشعب في اقصى درجات التحمس والهياج تضرم النار في هذا الحاجز وفي امنعة كاتب الدخولية سخطاً وانتقاماً . بينهم جماهير من النساء اشد سخطاً وتحمساً

وكان على الطريق قرب هذا المكان فرق نمساوية والمانية تشاهد هذا الخراب باوجه غير منقبضة

فلم يقف بيتو بل قحم الحاجز الملتهب بجواده فمرّ به كالسهم اذا مرق من غير ان

يؤذيه لهيب النار الذي حلقه . فلما وثب بيلو الحاجز اصبح بين تلك الجماهير المجتمعة التي كان في نفوسها من نار الغضب نار اقوى من التي بين يديها

وكان الناس يتوافدون من داخل المدينة الى هذا المكان جماعات جماعات وهم يصرخون — السلاح اعطونا السلاح

فترجل بيلو عن جواده وسار بين الجموع آخذاً لجام الجواد بيده وهو يصيح افسحوا افسحوا بلهجة الآمر و بيتو وراءه يقول بلهجة المتلطف : افسحوا اذا اردتم . افسحوا من فضلكم فكانت لهجة الثاني توازن لهجة الاول وتذهب بخشونتها

فقطعا بالجواد الزقاق الاول والزقاق الثاني في زحام شديد لا مثيل له واشرفا على الشارع الكبير فوجدا فيه من الزحام ما لا يستطيع الانسان معه ان يخطو خطوة واحدة

ذلك ان الوفاً مؤلفة من الشعب كانت تمشي في مشهد حافل وراء رجلين يحملان في الطليعة محملاً عليهما رسمان الواحد محاط بالسواد والثاني محاط بالازهار

اما الرسم المحاط بالسواد فكان رسم الوزير ناكار الذي عزله الملك(١) والرسم المحاط بالازهار رسم الدوق دورليان فسأل بيلو من حوله عن سبب هذا المحفل فقيل له ان الشعب اراد اكرام ناكار الذي طرده الملك والدوق دورليان الذي انتصر له في البلاط بالرغم عن الحزب الملكي فهم الآن يحتفلون برسميهما هذا الاحتفال

وكان بيلو قد عاش في بلاد كان فيها اسم الدوق دورليان مكرماً محترماً . وكان من انصار الفلسفة الجديدة والافكار الجديدة كما رأينا فكان يعتبر الوزير ناكار رسول الانسانية لا وزيراً فقط وكفى بذلك باعثاً على تهييج حماسته واثارة خواطره الوطنية فترك لجام الجواد بين يدي بيتو وهجم على مقدمة القوم صائحاً بكل قواه

— عاش الدوق دورليان عاش ناكار



(١) ناكار — هو جاك ناكار ولد في جنيف سنة ١٧٣٢ وكان صاحب بنك كبير في باريز معروفاً بالمهارة والاستقامة . استدعاه لويس السادس عشر الى الوزارة بعد تنحي تيرغو ومالرب عنها فبذل الهمة في ادخال اصلاحات عظيمة في مالية الدولة ولكنها كانت غير كافية . وقد قاومه البلاط ففصله الملك فقام الشعب يطلب اعادته فاعاده وكانت وفاته في سنة ١٨٠٤ وهو ابو مدام دي ستايل الكاتبة الفرنسوية الشهيرة التي سيرد ذكرها و رسمها في اثناء الحوادث القادمة

ثم اختلط بالجمع · ومتى اختلط الانسان بالجمع اصبح يرى رأيه و يشعر شعوره وكان كريشة وضعت في مجرى نهر عظيم يذهب بها ذلك المجرى في طريقه

وكانت الجموع تصيح — عاش ناكار · اطردوا الجنود الاجانب · لا نريد اجانب

فضم بيلو صوته الى اصواتهم حاذياً حذوهم

وكان لبيلو صوت جهوري قويّ ولاغرو فهو صوت بدوي عاش في الخلاء بسعة و يسار اما الباريزيون فكانت اصواتهم ضعيفة خافتة بعضها لرداءة الغذاء و بعضها من فعل المسكرات · فاستحسن هؤلاء صوت بيلو الجهوري القوي بازاء اصواتهم الضعيفة ففسحوا له مجالاً فبلغ بيلو طليعة القوم دون ان يَزحم او يُزحم حتى صار وراء حاملي الرسمين

و بعد بضع دقائق تعب احدهما فترك لبيلو مكانه

فكان تقدم بيلو سريعاً · بالامس كان قرويّاً بسيطاً ينشر مبادىء كتاب الدكتور جيلبار في قرية صغيرة مجهولة فاصبح اليوم عضواً مهمّاً في المشهد الوطني الذي يقيمه الشعب لاكرام ناكار والدوق دورليان

ولما اخذ بيلو بقبض المحمل افتكر بيتو والجواد فالتفت ليراهما فوجد الناس قد تعلقوا بالجواد من كل جانب واعتلوا ظهره لمشاهدة المحفل و بيتو يرفع يديه ويخفضهما دفاعاً عنه · فخطر له ان يذهب لاغاثة الجواد لانه رآه قريباً من الهلاك اذا بقي ذلك الثقل عليه ولكنه احجم عن ذلك خوفاً ان يفقد مركزه وما كل يوم ينال شرف المشي في طليعة المشهد الوطني · فاذا هلك الجواد فلا اسف عليه فان بيلو غني والف جواد مثله فدى الوطن والوطنية

فلبث بيلو سائراً في طليعة المحمل حتى وصل الجمع الى زقاق مونمارتر فاندفع منه الى ساحة النصر فالتقى عند الباله رويال بجمهور غفير من الناس في قبعاتهم اوراق من اوراق الشجر الخضراء وهم يصرخون

— السلاح اعطونا السلاح

فوقف الجمعان لمعرفة القادمين وهل هم اصدقاء ام اعداء · قلنا ان في قبعاتهم اوراقاً خضراء والاخضر شعار الكونت دارتوى فما الباعث على وضع العلامات الخضراء

و بعد استطلاع الامر انكشف السبب وهو التالي

لما شاع خبر انفصال ناكار خرج الى الشارع من قهوة (فوى) شاب فاعتلى مائدة هنالك وصاح وهو يرفع بيده مسدساً

— السلاح السلاح

فاجتمع حوله من كان في تلك الجهة واخذوا يصرخون صراخه

وكانت الجنود الاجنبية معسكرة فرقًا حول باريز كما مرَّ بنا وهي كرايناك وساليس ساماد ودي باش واسترهازي ودومار وكنى باسمائها باعثًا لاثارة افكار الباريزيين وتنبيههم الى انها اسماء جنود اعداء لا اصدقاء . فخطب هذا الشاب في القوم وسمى لهم هذه الجنود ثم قال : ان الجنود السويسيين سيدخلون في هذا المساء الى باريز يجرون اربعة مدافع مع جنود الدراكون بقيادة البرنس لامبزك(١) فانا اقترح عليكم ايها الناس ان تتخذوا لكم شعارًا تمتازون به عنهم فيعرف به بعضكم بعضًا . قال هذا ومد يده الى شجرة كانت فوق راسه فقطف ورقة من اوراقها ووضعها في قبعته قائلاً . هذا شعارنا في هذا النهار

فصاح الجميع صيحة واحدة وصنعوا صنعه فلم تنقضِ بضع دقائق الا وقد اصبحت تلك الاشجار عارية من الاوراق . وكان عدد الحاضرين ٣ الاف رجل

اما هذا الشاب فقد كان مجهولاً في اول النهار ولكن لم يأتِ المساء حتى صار اسمه ملء الافواه والآذان. وكان يدعى كاميل ديمولين (٢)

فلما وقف رجال المشهد الوطني الذي منهم يبلو على هذه التفاصيل عانقوا اخوانهم اصحاب الاوراق الخضراء وراح كل من الفريقين في سبيله

---

(١) لامبزك — البرنس لامبزك ولد في سنة ١٧٥١ وتوفي سنة ١٨٢٥ وهو احد زعماء المهاجرين من فرنسا في ايام الثورة ومن اشد الناس رغبة في مقاومتها



(٢) ديمولين — هو كاميل ديمولين المحامي والصحافي الفرنسوي ولد في سنة ١٧٦٢ وكان احد عوامل الثورة الفرنسوية وهو الذي اعدَّ الشعب للهجوم على سجن الباستيل كما سيرد في الحوادث التالية وكان ينشىء اثناء الثورة جريدة تدعى « ثورة فرنسا وبرابان » ويلقبونه « نائب اللانترن العمومي » واللانترن عندهم المصباح في الشارع كان الشعب يشنق عنده من يريد شنقه فكان ديمولين يستكثر هذا الشنق كما يدل على ذلك لقبه . وحكم عليه في ٥ افريل سنة ١٧٩٤ بالاعدام فاعدم وقد حاولت امرأته لوسيل دو بلاسي في هذا اليوم ان تستثير الشعب لانقاذه فخاب سعيها والقي القبض عليها فاعدمت ايضًا

وفي اثناء هذه الوقفة التفت بيلو باحثاً عن بيتو والجواد فرأى الحيوان المسكين ينوء بمن فوقه من الرجال كانه فيل هندي هائل خارج بالصيادين للصيد . ثم انه رأى الجواد يهوي الى الارض بمن فوقه كطود تميد به الارض فنادى بيلو ثلاث مرات بيتو . كما كان يصنع الرومانيون في جنازات اقاربهم تخيل له انه يسمع نداء بيتو مجيباً ولكن صراخ الجموع وجلبتهم غطت ذلك الصوت

وكان الشعب كالبحر الهائج من شدة التحمس والاضطراب والاسواق مقفلة الا ان نوافذ المنازل مفتوحة يلقي منها السكان كلمات التشجيع والتنشيط لتلك الجماهير المتحمسة . وما زال الجمع سائراً حتى اشرف على ساحة فاندوم

وكما تتراجع جذوع الاشجار التي يحملها النهر حين اصطدامها بقواعد الجسر هكذا تراجعت طليعة القوم لالتقائها بشرذمة من الجنود الالمانية كانت في ساحة فاندوم

وكان هؤلاء الجنود فرساناً من الالمان ملت خيولهم طول الانتظار فما ابصروا الشعب مقبلاً نحوهم حتى اطلقوها عليه وصوبوا بنادقهم اليه . فصدمت الخيل حاملي المحمل الذي عليه الرسمان فسقط وانقلب الرسمان فهجم حينئذٍ فتى من سافوى على رسم الدوق دورليان فوضعه على طرف عصا طويلة ورفعها فوق راسه صارخاً عاش الدوق دورليان . فاراد بيلو ان يصنع برسم ناكار ما صنعه الفتى برسم الدوق فسبقه اليه فتى فوضعه على شيء كالرمح وادناه من رسم الدوق دورليان

وكان بيلو لا يزال منحنياً الى الارض مفتشاً عن الرسم . وبينما هو كذلك واذ شق الفضاء صوت البارود قادماً من جهة الجنود فشعر بيلو بشيء قوي يصدم راسه فسقط على الارض حاسباً نفسه في عداد الاموات

ثم نهض فابصر حامل رسم ناكار يختبط بدمه لرصاصة نفذت صدره فصاح صياح الغيظ والغضب وصاح الجمع لصياحه فاطلق الجنود النار ثانية عليهم لاعتبار صياحهم صياح تمرد وعصيان ففتح الرصاص فراغاً بين الجمع دل على قتل بعض منهم

فزاد بيلو غيظاً وغضباً وهم ان يتناول رسم ناكار عن الارض ويرفعه واذا يد قد وضعت على كتفه فارد التفلت منها لتناول الرسم فما استطاع ذلك فالتفت وهو يزئر زئير الاسود فابصر بيتو فقال له مالك تقبض علي قال انحن سريعاً و بعد ذلك نتكلم . وما كاد ينحني بيلو حتى طبقت الجو اصوات البنادق تطلقها الجنود . فخر الذي كان يحمل صورة الدوق دورليان صريعاً على الارض وكان واقفاً بجانب بيلو . ثم مر الفرسان بخيولهم فوق

جثث القتلى يطاردون الشعب و ينشرون بينه الرعب والهول

و بعد مرورهم اقترب بيتو من بيلو زحفاً على بطنه وهمس قائلاً : اصبت يامسيو بيلو فقد كان قدومنا الى باريز في حينه . قال بيلو دع هذا الآن وهلم الى استعاف هذا الرجل الذي سقط بازائنا فاني ارى جرحه غير مميت . ثم نهضا يختلسان الخطى فحمل بيلو هذا الرجل على ظهره والتفتا فابصرا زقاق سان هونوري خالياً فسارا فيه يقصدان القصر الملكي

الفصل الحادي عشر

(١) (من ليل ١٢ يوليو الى ١٣ يوليو سنة ١٧٨٩)

ولما ثاب الى الشعب رشده عاد من تشتته وفراره وصار الناس يخرجون من منعطفات الطرق وزوايا الأبواب و ينضمون الى بعضهم البعض . وتكاثروا فاخذوا يصرخون باصوات ضعيفة ثم قويت اصواتهم فصاروا يصرخون بكل قواهم

— الانتقام الانتقام

ولما وصل بيلو و بيتو الى ساحة القصر الملكي رأوا فيه جمهوراً غفيراً من الشعب سكارى بخمرة الغضب وحب الانتقام جاءوا يستنجدون جنود الحرس الفرنسوي على الجنود الاجانب الذين اوسعوهم قتلاً وجرحاً . وكانت شرذمة من هذا الحرس واقفة في عرض تلك الساحة اولها عند باب القصر وآخرها عند زقاق شارتر

فاقترب بيلو وسأل من هم هؤلاء الجنود . فقيل له انهم الحرس الفرنسوي . فتقدم بيلو منهم بنزق وغضب واراهم الرجل الذي بين يديه صارخاً

— يقتلون الشعب وانتم واقفون هنا

فذعر رجال الحرس وصاح احدهم هل مات . قال بيلو نعم مات هو وكثيرون سواه . قال احدهم ومن قتله . قال بيلو قتله الالمانيون اعداؤنا واعداؤكم اما سمعتم اصوات بنادقهم وركض خيولهم

فقال احد الحراس نعم نعم لقد كانوا في ساحة فاندوم يفتكون في الشعب

---

(١) بقي يوم واحد لهجوم الشعب على الباستيل واستيلائه عليه في ١٤ يوليو وهو اليوم الذي اتخذته الجمهورية الفرنسوية عيداً لها : وسيرد تفصيل ذلك

فتكا ذريعاً

فصاح حينئذٍ بيلو ملء فمه : ولكن انتم من الشعب ايضاً · ان من الجبن والعار ان تتركوا الاجانب يقتلون اخوانكم

فاستشاط الحرس غيظاً وصاح بعضهم تقول من الجبانة · فصاح بيلو : قلت واقول ان من الجبن تركم اخوانكم · ثم خطا خطوة نحو الجهة التي خرج منها الصوت وقال : من ذا الذي يظهر الغيظ · العلكم تريدون الفتك بنا لتبرهنوا على انكم لستم بجبناء : فقال احد الحرس مسكناً روعه · لا تلمنا ياصاح واعذرنا فانك تعلم اننا جنود علينا الطاعة للنظام والرؤساء

فقال بيلو فاذاً اذا امركم الرؤساء غداً باطلاق النار علينا فانكم لا تخالفون امرهم فصاح احدهم اما انا فلا اطلق ناراً على الشعب · وصاح منهم كثيرون غيره ولا انا ايضاً · فقال حينئذٍ بيلو فاذا كنتم تكرهون اطلاق النار على ابناء الشعب اخوانكم فامنعوا الاجانب من اطلاق النار عليهم

واذا بصيحة قد علت وقائل يقول جاء الفرسان جاء الفرسان

فتقدم بيلو من احد الحراس وقال جاء الاجانب لقتالنا ونحن بلا سلاح فاعطونا سلاحكم ثم مد يده الى بندقيته · فارجعه الحارس وقال دعها فاننا نحميكم اذا ارادوا بكم شراً

فصاح جميع الحراس نعم لا تخافوا فاننا نحميكم · فرجع بيلو مستاء وهو يقول كيف لم اجيء بسلاحي

واذا به يسمع قائلاً يقول بجانبه خذ هذه البندقية لحاجتك · فالتفت بيلو فابصر رجلاً يمد اليه يده وفيها بندقية فتناولها مسروراً · وكان فرسان الالمانيين قد ظهروا في طرف الشارع · فلما رآهم بيلو خطا خطوات نحوهم صارخاً

— قفوا عندكم ايها السادة

فلم يصغوا اليه بل بقيت خيولهم تركض في الساحة وكان في طريقها امرأة وشيخ فداستهما حوافر الخيل

فصاح بيلو حينئذٍ ملء فمه : اطلقوا النار

وكان بيلو واقفاً بازاء ضابط الحرس · فظن الحرس ان هذا الامر صدر من ضابطهم ففوقوا بنادقهم الى فرسان الالمان واطلقوا عليهم ناراً حامية

فوقفت خيولهم . وتقدم قائدهم صارخاً بالحرس . انتبهوا ايها السادة فانكم تطلقون النار علينا

فلم يمهله بيلو ان صاح به : وهل في الامر غرابة . ثم فوق بندقيته اليه واطلق النار عليه نحر القائد يختبط بدمه

فاطلق حينئذٍ الحراس النار ثانية على الالمان فالوى هؤلاء اعنة خيلهم وعادوا ادراجهم والشعب يهتف ويهلل صارخاً — عاش الحرس الفرنسوي

و بعد هنيهة صاح بيلو بصوته الجهوري قضيت حاجتي لمن هذه البندقية فاجابه رجل بازائه . هي لي ولكن سيدي رآك تحسن استخدامها فاحب ان تبقى لك . فتأمل بيلو الرجل فعلم من لباسه انه خادم للدوق دورليان . قال له واين سيدك . قال هنالك في هذه النافذة فصاح بيلو حينئذٍ بالشعب قائلاً — ايها الاخوان ان الدوق دورليان مع الشعب فاهتفوا للدوق دورليان . قال هذا واراهم نافذة في اعلى القصر فانفتحت هذه النافذة للحال وظهر فيها الدوق دورليان . فساد السكون على الحاضرين فنظر اليهم الدوق ثم حياهم ثلاثاً ودخل فاغلقت النافذة

فهتف حينئذٍ من الشعب ثلاثة الاف صوت صارخين — عاش الدوق دورليان . وصاح بعضهم . نريد سلاحاً . فقال آخرون اكسروا مخازن الاسحة وقال غيرهم بل هلموا بنا الى الاوتيل دي فيل (المجلس البلدي) لناخذ من الرئيس فلاسال مفاتيح مخازن الاسلحة . فصاح الآخرون هلموا الى الاوتيل دي فيل . واندفق الشعب يقصد الاوتيل دي فيل

وكانت فرسان الالمان في هذه الاثناء قد عادت الى قائدها البرنس لامبزك واخبرته الخبر . فامر البرنس ان تحصر تلك الجماهير المتجمهرة في ساحة القصر الملكي فحصرت في وسط قوس من الجند وترها جدار التويلري (١) وحاجز بون تورنان . والاول يستحيل تسلقه والثاني يتعذر كسره

وكان بيلو يرغب في المسير مع الشعب الى حيث سار ولكنه قال لبيتو سنقضي اولاً حاجة الدكتور فنبلغه امر الكراس والصندوقة ثم نعود الى هذه الاهوال فهلم بنا

فلما وصل بيلو الى التويلري علم ان الشعب محصور في القوس كما ذكرنا وانه لا يرجو

(١) التوياري — هو قصر عظيم في باريز تحيط به حديقة واسعة . شرع في بنائه سنة ١٥٦٤ واتخذه ملوك فرنسا الاولون مقاماً لهم . ثم اختاروا عليه قصر فرسايل فهجروه

خلاصاً الا بتسلق جدار التويلري او كسر الحاجز وكان مجتمعاً حوالي التويلري نحو خمسة الاف نفس يبحثون في خروجهم

فقصد بيلو ضفة النهر فوجد عليها جذوعاً ضخمة من اشجار تتخذ لبناء السفن فحمل جذعاً ضخماً مع بيتو وقصدا به الحاجز الحديدي فضربوه بالجذع حتى كسروه فدخل منه الشعب كانه الماء المحتقن وقد وجد منصرفاً

فشعر البرنس لامبزك ان الشعب قد وجد منفذاً . فاستشاط غيظاً ودفع جواده الى الامام ليطلع على ما جرى فظن الفرسان الذين وراءه ان هذه الحركة بمثابة امر لهم بالهجوم فهجموا. ثم لم يبقَ في استطاعتهم كبح جماح خيولهم او انهم اطلقوها عمداً لينتقموا لانفسهم عما مضى

ولما رأى البرنس لامبزك انه عاجز عن ايقاف فرسانه معهم هجم على قوم ضعفاء بدون سلاح . فاشتدت الضوضاء وعلا الصراخ وارتفع صياح النساء والأولاد الى السماء يطلبون الانتقام للضعفاء

فحدث في ظلام ذلك الليل مشهد مريع تقشعر له الابدان. وسكر المطارِدون بخمرة الانتقام فامعنوا في المطارَدين قتلاً بالحسام والرصاص ودوساً بسنابك الخيل . وطارت الموائد والكراسي من اعالي السطوح تتساقط على البرنس لامبزك وفرسانه انتصاراً للشعب فاصيب البرنس بكرسي في راسه فاجاب عليه بطعنة من سيفه اصابت شيخاً فخر يختبط بدمه . وكان بيلو ينظر هذا المشهد فاقشعر جلده وغلى الدم في عروقه فصوب بندقيته إلى البرنس واطلق النار . ولولا اجفال جواد البرنس ووقوفه على رجليه لقضي على البرنس لا محالة. فاصابت رصاصة بيلو صدر الجواد فسقط البرنس على الارض فظن الفرسان ان قائدهم قد قُتل فهجموا هجمة واحدة وصنعوا بالشعب فظائع واهوالاً

الا ان المكان كان متسع الارجاء وحديقة التويلري فسيحة واسعة فتفرق الشعب فيها شيئاً فشيئاً حتى اختفوا عن اعين اعدائهم فخرج بيلو وبيتو من تلك المعركة ينفضان عنهما غبار الموت والهول فبلغا جسر التويلري بسلام

حتى قامت الامبراطورية فاتخذته مقاماً . وجعلته الجمهورية منذ قيامها مجلساً للنواب كما هو اليوم . وقد احرقه حزب الكومون في سنة ١٨٧١ فاعيد بناؤه

الفصل الثاني عشر

(الى الباستيل)

ولما وصلا الى الجسر ابصرا من بعيد سلاحاً يلمع في الظلام فخافا ان يكون هنالك حراس من الاعداء فنزلا الى شاطئ النهر واستلقيا على العشب الاخضر النابت على ضفته تحت اشجار الصفصاف الباسقة . واخذا يتحادثان بما شاهداه من الاهوال

وبعد نصف ساعة على الكثير سمعا ساعة التويلري تدق الساعة الحادية عشرة ونصفاً فقال بيلو لم يبق في استطاعتنا مقابلة ابن الدكتور جيلبار لسؤاله عن ابيه فان مدرسة لويس الكبير مقفلة في هذه الساعة

ولم يأت بيلو على هذا الكلام حتى وقع في اذنيهما اصوات الشعب وضوضاء الكسر والتخريب فقال بيتو ما هذه الاصوات قال بيلو اظن الشعب يكسر ويخرب ما امامه و يالغضب الشعب اذا ثار

فقال بيتو ولكني لا ارى الشعب وحده ساخطاً . قال وكيف ذلك . قال اليس هؤلاء النمساويون والالمانيون من جنود الملك . وغني عن البيان انهم لا يطلقون النار على الشعب من غير اذنه . وهو لا يأذن بذلك الا اذا كان ساخطاً على الشعب سخط الشعب عليه

فقال بيلو اصبت يا بيتو واخطأت معاً

فقال بيتو مذهوشاً عفواً ياسيدي لو تعلمت المنطق لعلمت ان قولاً واحداً لا يمكن ان يكون معاً خطأ وصواباً

قال بيلو اسمع لاوضح لك هذا الامر يا بيتو . في البلاط الآن حزبان . حزب الملك وهو نصير للشعب وحزب الملكة وهو نصير النمساويين

فقال بيتو لا غرابة في ذلك لان الملك فرنسوي والملكة نمساوية

قال اسمع . اما حزب الملك فزعيمه المسيو تيركو (١) والمسيو ناكار واما



(١) تيركو -- اقتصادي فرنسوي شهير ولد في سنة ١٧٢٧ وقد استوزره لويس السادس عشر قبل ناكار فجهد لادخال اصلاحات عظيمة في مالية الدولة ولكنه خاب سعياً لمقاومة الاشراف له وسوء نية الذين تحت يده من العمال فعزله الملك وكانت وفاته سنة ١٧٨١

حزب الملكة فزعيمه المسيو برتوبل وعشيرة بولينياك . والظاهر ان الحزب الثاني قد تغلب على الحزب الاول حتى طرد الملك نا كار وتيركو . فالملكة هي القابضة الآن على ازمة الاحكام . قلت الملكة واريد بذلك حزبها برتوبل و بولينياك . فهي الغضبى الساخطة دون الملك لان خزانة المملكة فرغت من كثرة نفقاتها على المقربين اليها فلم يبق لها ان تنفق عليهم كما كانت تنفق اولاً . ولذلك تطلق جنودها على الشعب ليذبحوه في بلاده . اما الملك (١) فما هو بساخط على الشعب ولكنه مستاء من هذه الاحوال

و بعد هذا الايضاح نام بيتو و بيلو على ضفة النهر الى الصباح . ولما انفجر بركان النهار وطلت الغزالة على هودج النار نهضا فابصرا باريز على ما كانت عليه من الهياج والاضطراب . فقد كان الشعب في الشوارع كالبحر الزاخر بعضه مسلح بحراب صنعت على عجل والبعض ينادق لا يعرفون طريقة اطلاقها وغيرهم باسلحة قديمة يتنافس حاملوها بقبضاتها الثمينة .



(١) لويس السادس عشر — هو حفيد لويس الخامس عشر من ولي عهده البرنس لويس . ولد في فرسايل في سنة ١٧٥٤ وتنفس الفرنسويون الصعداء يوم ارتقائه الى عرش الملك لما سبق من ضغط سلفه الملك لويس الخامس عشر وسوء سيرته . وكان لويس السادس عشر مشهوراً بحسن النية وصدق الحب للشعب ولكنه كان ضعيف الراي ووجد في زمن وجب ان يكفر فيه عن جميع الرذائل التي تقدمته فصدق فيه قول القائل الاباء يا كلون الحصرم والابناء يضرسون . وقد استوزر تيركو ومالرب فاثارت سياستها سخط البلاط والاشراف لانهما قصدا الاصلاح فالتجأ الملك الى فصلهما . فاستوزر بعدهما نا كار الذي مرّ ذكره من قبل فكان من شانه ما كان من شانهما فعزله الملك ايضاً مضطراً لا مختاراً وتولى ادارة الحكومة من ذلك العهد صنائع البلاط والمقربين الى الملكة من اسرة برتوبل واسرة بولينياك كما ذكر فاشتد نفوذ الملكة ماري انتوانت زوجة لويس السادس عشر حتى اصبحت في بلاط فرنسا الكل في الكل . ولكن الافكار ثارت على ما كان يجري في البلاط فقام الشعب يطلب نا كار فاسترده الملك فاقنع نا كار الملك بازاء ما رآه من شدة وطأة الاشراف وفراغ خزانة الدولة بوجوب جمع مجالس الولايات للنظر في شؤون الامة فاجتمعت هذه المجالس في فرسايل . وهنا نمسك القلم فان الحوادث القادمة تتم ذلك فيظهر فيها جميع ما دار بين الشعب والملكية من الكبائر والصغائر

وكانت جماهير من الشعب تسير نحو الاوتيل دي فيل بمدفعين صغيرين يجريان امامها والاجراس في جميع الكنائس تقرع قرعاً شديداً متتابعاً · والازقة والشوارع غاصة بالوف من الرجال والنساء· جماهير لا يعرف من اين اتت من الارض ام من السماء · مئات والوف صفر الوجوه حفاة الاقدام عراة الابدان كانوا بالامس يصرخون ويجلبون طالبين خبزاً اما اليوم فانهم يطلبون سلاحاً · كانهم هيا كل اموات تمشي بين ازقة الاحياء كانوا يتوافدون من الاقاليم على باريز منذ شهرين فيجتازون الحواجز سكوتاً ويدخلون المدينة الكبرى دخول اغوال العرب ما بين القبور

وكان في باريز فوق هذه الطبقة من ابناء الامة طبقة اخرى من نواب الامة ومهاجريها · فكانت الامة تنادي الملك على لسان هؤلاء النواب قائلة

— اعطنا حريتنا

وتنادي الله

— اعطنا خبزنا

فسار بيلو وبيتو بين هذه الجماهير المتجمهرة يقصدان مدرسة لويس الكبير فوجدا الشعب قد اقام في الشوارع المتاريس والاستحكامات كما كان يصنع في حرب الفروند ونظرا كثيرين من النساء والاولاد يرفعون الى سطوح المنازل الاثاث القديم والكراسي والكتب الضخمة وقطع الرخام ليرموا بها الجنود الاجانب حين مرورهم بتلك المنازل · ومرا بجماعات من الشعب تجمعين حول جنود من الحرس الفرنسوي يأخذون عنهم طريقة اطلاق البنادق والاولاد والنساء يتعلمون ذلك مع الرجال

ولما وصلا الى مدرسة لويس الكبير وجدا الطلبة في قيام وقعود · فانهم ثاروا على مدير المدرسة لما سمعوا بثورة الشعب وراموا الخروج من المدرسة فاقفل عليهم المدير باب الحاجز الحديدي الخارجي فاجتمع التلامذة عند هذا الباب · ووصل بيلو الى الباب وثلاثة من التلامذة قد اتوا بسلم ليضعوها على الحاجز فيتسلقوه ويخرجوا · فصاح بيلو بالطلبة من منكم يدعى سيباستيين جيلبار

فاجابه فتى في الخامسة عشرة بجمال رائع يحكي جمال الفتيات : انا ياسيدي· فقال بيلو تقدم يابني · فحاول الفتى ان يصعد على السلم فصاح به مدير المدرسة وكان خارج الحاجز ارجوكم يا اولادي ان لا تخرجوا من المدرسة

فصاح الفتى ولكنني قلت لك انه لا بد لي من الخروج فقد القت الحكومة القبض

على ابي فيجب ان اخرج واخلصه من ايديهم

فاجفل بيلو لما سمع هذا الكلام وصاح بغضب :ابوك في قبضة الظالمين

فصرخ الولد . نعم نعم قبضوا عليه فيجب ان اخرج وآخذ سيفاً او فرداً لاخلص ابي

فتحمس التلامذة لصراخ الولد وصاحوا صياحه — السلاح السلاح

وكان الشعب قد بدأ يتجمهر امام باب المدرسة فسرى اليه تحمس التلامذة ورثى لهم فهجم على الحاجز ليكسره ويخرجهم

فحال بينهم وبين الحاجز مدير المدرسة صارخاً — رحماكم دعوا هؤلاء الاولاد وشأنهم

فلم يعبأ احد بكلامه بل حاولوا كسر الحاجز . فتقدم حينئذٍ بيلو ووقف في وجه الشعب قائلاً . لقد صدق مدير المدرسة اتركوا هؤلاء الاولاد وشانهم فانهم بذار المستقبل

فضج بعض الحاضرين ضجيج السخط . فخطا بيلو الى الامام قائلاً — من يضج هناك . لا اظنه ابًا فان الاب يعرف قدر الاولاد . انظروا اليَّ فقد شهدت واقعة امس وهذه اثار الدماء على ملابسي . قال هذا واراهم الدماء على ثيابه ثم قال . شهدت واقعة امس وساشهد واقعة اليوم ووقائع الغد . ولكنني اخجل ان يقال ان الباريزيين جبنوا عن لقاء الظالمين فاستنجدوا بالاولاد

فارتفع ضجيج الاستحسان الى السماء وصاح النساء وجنود الحرس الفرنسوي من كل جانب : احسنت احسنت . وهكذا رجع الشعب عن الحاجز . اما بيلو فطلب من المدير ان يفتح له الباب ثم دخل الى المدرسة فاخذ سيباستيين وساله ان يقص عليه خبر والده فاخبره ان الحكومة القت القبض على والده في مدينة الهافر فيما هو عائد من اميركا منذ ستة ايام . فاخذ الدكتور وهو في سجنه كتاباً وكتب عليه ما ياتي :

« عزيزي سيباستيين

« قُبض عليَّ وسأُسجن في الباستيل . اصبر . ادرس . وافتكر .

« في ٧ تموز سنة ١٧٨٩ « جيلبار »

« ذيل — قُبض عليَّ لاني من انصار الحرية . لي في مدرسة لويس الكبير ولد يدعى سيباستيين جيلبار . فباسم الانسانية اسال من يجد هذا الكتاب ان يوصله اليه »

قال بيلو وماذا جرى بعد ذلك · قال فوضع ابي خمسة ذهب في الكتاب وربطه ربطاً محكماً ثم القاه من نافذة السجن الى الطريق فوجده كاهن البلدة فاخذه الى رجل فقير وقال له · هذه خمسة ذهب · ابتع بنصفها خبزاً لبنيك الجياع وسر بالنصف الآخر الى باريز لايصال هذا الكتاب الى ولد مسكين القت الحكومة القبض على والده وما ذنبه الا انه يحب الشعب فاتاني هذا الشاب وسلمني الكتاب

فقال بيلو متاملاً · لقد حبب الي هذا الكاهن الكهنة مع ما هو معروف عني · واين الكتاب

فمد الولد يده الى جيبه واخرج منها نسخة من كتاب الميثاق الاجتماعي (الكونترا سوسيال) تاليف جان جاك روسو · فتناوله بيلو باحترام وسال عن موضع توقيع الدكتور جيلبار قدله سيباستيين عليه · فوضع بيلو شفتيه على احرف التوقيع وقبلها باحترام · ثم القى الكتاب الى الولد قائلاً — اما الآن فليهنأ بالك فان اباك سيخرج من الباستيل في هذا النهار

قال هذا وظهرت في وجهه لوائح الغيظ والتصميم الشديد

فقال الولد وكيف يخرج والدي · قال بيلو · سكن من روعك فانني ذاهب لافتح له ابواب سجنه

فنظر اليه مدير المدرسة وقال كيف نفتح ابواب الباستيل الا تعلم انه سجن سياسي امنع من عقاب الجو (١)

قال بيلو متاملاً نعم اعلم ذلك ولكني سافتح ابواب الباستيل

وكان بعض الحرس على مقربة من بيلو يسمعون كلامه فصاروا يضحكون ويسخرون من قوله · وبعد هنيهة سرى كلام بيلو الى جميع الحاضرين فطفقوا كلهم يضحكون ويسخرون

فدرى بيلو بسبب ضحكهم فنظر اليهم بعين كعين النسر او مقلة الاسد وصاح بصوته الجهوري وعينه تقدح شرر الغضب والحنق — اخبروني ما هذا الباستيل الذي يخيفكم الى هذا الحد

---

(١) الباستيل قلعة حصينة كانت في حي سانت انطوان سجناً للمجرمين السياسيين شرع في بنائها في عهد الملك شارل الخامس سنة ١٣٦٩ وتم بناؤها في سنة ١٣٨٢

فقال جندي من الواقفين ساخرًا — ما هو الا حجارة

وقال ثانٍ — وحديد

وقال ثالث — ونار . ولكنها اشد من نار جهنم

فرفع بيلو حينئذٍ راسه بكبرياء وعظمة وصاح ملء فمه وقد اخذ الغضب منه كل ماخذ: — تبًا لكم ايها الباريزيون الجبناء . تخافون الحجارة وعندكم المعاول والانخال . تخشون الحديد ولديكم الرصاص . ترهبون النار وعندكم البارود . يا ايها الباريزيون المخنثون الجبناء منخلعو القلوب وضعفاء النفوس . يامن الفوا الذل والاستعباد الى متى الصبر على هذا الضيم وحتى متى تطأطئون الرؤوس امام الظالمين . لتهدم انخال الحرية معالم العبودية . ليسقط الباستيل امام ارادة الامة وقوتها . اني هاجم مع هذا الفتى الصغير (واشار الى بيتو) على سجن الباستيل ولا يردني عنه شيء حتى صواعق السماء . فمن منكم الشجاع الكريم الذي يتبعني

وكان بيلو قد بلغ في كلامه قمة الحماسة والعظمة . فسرت روحه الى الشعب فتكهربت نفوسهم وثار فيها ما كان كامنًا من الحماسة ومقت الاستبداد فصاروا يتحادثون مستحسنين كلامه واخذوا يموجون و يضطربون

فرأى بيلو تحمسهم واضطرابهم فاغتنم هذه الفرصة وصاح بهم . كالكم شجعان وكرام فهلموا بنا جميعًا الى الباستيل نهدم في ساعة ظلم قرون واجيال . وخطا خطوة الى الامام

فتعلق به سيباستيين وقال . انا ذاهب معكم لافتح باب السجن لابي

قال بيلو اسمع ياسيباستيين . ما هي آخر كلمة قالها ابوك في كتابه . قال هي : ادرس وافتكر

قال بيلو فادرس هنا يابني وافتكر فهذا عملك انت اما عملنا نحن فهو : هدم وقتل .

فسكت الولد ولكنه ستر وجهه بكفه وسقط على الارض يبكي وينتحب ثم اصابته نوبة عصبية فنقل الى المستشفى

فودعه بيلو بنظرة ملؤها الشفقة والحنو ثم خطا نحو الباب ونظر الى الشعب الهائج امامه صارخًا بكل قواه — هلموا الى الباستيل . فاجاب بيتو من ورائه صارخًا ومحركًا يده — الى الباستيل

فارتفع حينئذ من الشعب صراخ مخيف كانه هزيم الرعد القاصف وسُمع صوت واحد لفظته الوف من الافواه وهو :

— الى الباستيل
واندفعوا كالسيل الجارف متجهين نحو الباستيل

الفصل الثالث عشر

(خلاصة وجيزة)

نترك الشعب الآن سائرًا نحو الباستيل ونورد لمعة من الحوادث التاريخية التي تقدمت هذه الحادثة زيادة في تفهيم الحوادث المقبلة

لما توفي لويس الخامس عشر (١) تنفس الناس الصعداء وفرحوا بارتقاء لويس السادس عشر الى عرش الملك لانه كان شابًا نزيه النفس عاقلاً محبًا للشعب • فلما جلس هذا الملك على تخت اجداده رأى الهاوية التي امامه من فراغ الخزانة ونقمة الامة على الملكية لاسرافها





(١) لويس الخامس عشر — هو ثالث ابناء الدوق دي بورغون احد احفاد لويس الرابع عشر • ولد في فرسايل سنة ١٧١٠ وجلس على تخت الملك في سنة ١٧١٥ تحت وصاية فيليب دورليان • وقد حدثت في عهده حروب شديدة استنزفت الخزانة الفرنسوية واضاعت ما لفرنسا من المستعمرات • ومما ساعد على استنزاف اموال الدولة عشيقات الملك اللواتي اشتد نفوذهن عليه منذ سنة ١٧٤٨ فاصبحن يدرن سياسة الدولة • وكانت مدام بومبادور اشدهن نفوذًا وهي الماركيزة انتوانت بواسون دي بومبادور التي وضعنا رسمها مقابل رسم الملك فوق هذه السطور • فانها هي التي دفعته الى الحرب المشومة المعروفة بحرب السنين السبع وقد انفق الملك على هذه العشيقة من خزانة الدولة نحو اربعين مليون فرنك • وكان لويس الخامس عشر ينفق على ملاذه فقط ثلاثة ملايين فرنك في كل سنة • وكان اذا نبهه احد الى زوال الملك ان بقي متبعًا خطته قال « سيبقى ما بقيت » اي لا خوف من زوال ملكه فانه يبقى مدة بقائه على الاقل • وقد استاء البرلمان واليسوعيون من سلوكه وكان هولاء سلطة عظيمة في فرنسا في ذلك الحين فاعرض الملك عنهم وعن البرلمان واساء الى الفريقين مع انهما كانا عماد الملكية وسندها • و بالنظر لما تلطخ به العرش من الاوحال الادبية والسياسية في هذا العهد قام كتاب العصر يشددون الانتقاد على

وتهورها فابطل الصنيعة وترك الانعام على المقربين · فارتاع المقربون لذلك · وكانت الملكة ضعيفة السلطة قبل ولادتها ولي العهد في سنة ١٧٧٧ · فلما وضعت ولي العهد اشتدت سلطتها على الملك بحكم الطبع فاصبح لا يرد لها طلباً · فانفتحت خزانة الدولة من جديد للملكة والمقربين اليها وعاد البلاط الى نفقاته الماضية بعد تركها (١)

فسقط اثر ذلك مالرب وتيرغو عن الوزارة ووليها الوزير ناكار فسار سيرهما كما مرّ بنا وهو الاصلاح بالاقتصاد وترك البذخ والاسراف فاسقطه البلاط

ولكن اشتد سوء الحال في تلك السنة وارسل الله البرد والجوع سوطاً على الشعب يدفعه الى ما تتم به ارادته فاضطر الملك بازاء سوء الحال واختلال المالية ذلك الاختلال ان يسترد ناكار فرده الى الوزارة وجمع مجالس الولايات وهم نواب من المقاطعات جمعهم لتدارك حال الدولة وتدبير المالية · فاجتمعوا في فرسايل وكانوا ثلاثة احزاب · حزب الاشراف · وحزب الاكليروس · وحزب الشعب · بل لم يكونوا ثلاثة احزاب كما قال سياياس ولكن ٣ امم لتباين اغراضهم وتفاوت مبادئهم

فاستقبلهم الملك في فرسايل في ٣ مايو سنة ١٧٨٨ · وبدأ بنواب الاكليروس ثم

الملك وبلاطه منهم فولتير وروسو ومونتسكيو والانسيكلوبيديون فاعدوا الافكار بانتقاداتهم الشديدة لهذه الثورة التي نحكي هنا تفاصيلها فكانهم بذلك مهدوا سبيلها وكانوا اول من اضرم نارها · وكان هولاء الكتاب السياسيون يضعون اساس الحرية الجديد في اقوالهم وغيرهم من العلماء كلافوازيه وبيفون وفرانكلين وكالفاني ولينه وجوسيو يضعون اساساً جديداً للعلم فكملت بذلك الحركة الاجتماعية · وكانت وفاة لويس الخامس عشر في سنة ١٧٧٤ فتنفس الناس الصعداء لزوال بلاء حكمه وكان يومئذ فرح عظيم عند الشعب



(١) ماري انتوانت ملكة فرنسا — هي ابنة الامبراطور فرنسوى الاول ملك النمسا والملكة ماري تاراز الشهيرة · ولدت في فيينا سنة ١٧٥٥ وتزوجت بالملك لويس السادس عشر فاصبحت ملكة فرنسا وصار لها على الملك سلطة عظيمة فاستخدمت هذه السلطة لنفع المقربين اليها ودفع الملك الى مقاومة الاصلاح ومضادة الثورة الفرنسوية · وسيرد ذكر ذلك بالتفصيل مع بيان ما صنعته ابان الثورة من صغائر الامور وكبائرها وما صارت اليه بعد سقوط الملكية

الاشراف ثم الشعب · فكان ذلك داعياً الى انتظار نواب الشعب حتى تاتي نوبتهم · فضجروا وتذمروا

وكانت العادة أن رئيس نواب الشعب يخطب وهو جاث على ركبته امام الملك فرفض رئيسهم هذه المرة ان يجثو فتقرر ترك الخطبة

ولما اجتمع النواب في فرسايل رفض الاكليروس والاشراف مجالسة حزب الشعب وهو الاكثرية فاخذوا يجتمعون في قاعة اخرى · فاقترح سياياس ان ينذر الاكليروس والاشراف بالحضور الى قاعة الشعب لعقد الجلسة العمومية فيها والا استغنى الشعب عن الفريقين

فقال له احد الحاضرين ولكنك اذا استغنيت عن الاشراف والاكليروس فالمجلس لا يكون مجمعاً لنواب الولايات

فقال سياياس : اذن يكون مجمعاً وطنياً

ولما لم يحضر الغائبون تقرر باكثرية ٤٠٠ صوت تسمية نواب الشعب «المجمع الوطني» · وكان ذلك في ١٠ يونيو

وفي ١٩ منه امر الملك باقفال القاعة التي كان يجتمع فيها نواب الشعب لما بلغه انفصالهم عن الفريقين الآخرين · فاتى النواب في صباح ٢٠ منه فوجدوا باب قاعتهم مغلقاً والحراس يحرسونه · فحاولوا كسر الباب ولكن احدهم اشار بالاجتماع في ملعب (البوم) في المدينة · فاجتمعوا فيه ورئيسهم بالي العالم الشهير (١) · فاقسموا فيه يميناً ان لا يتفرق الاعضاء حتى يضعوا دستوراً للامة (٢)



(١) بالي — كاتب وفلكي فرنسوي ولد في سنة ١٧٣٦ في باريز وقد انتخبه حزب الشعب رئيساً للمجمع الوطني فرأس الجلسة الشهيرة التي عقدها هذا المجلس في ملعب (البوم) · ثم عين حاكماً لباريز بعد سقوط الباستيل كما سيرد تفصيل ذلك · ومات قتلاً في سنة ١٧٩٣ · وكان يوم اعدامه يوماً بارداً فكانت تصطك اسنانه فساله احدهم «مالك ترتجف يابالي» فاجاب ببساطة · «من البرد ياصاح» نفى بذلك الخوف عنه فذهبت مثلاً

(٢) يمين ملعب البوم — لعب البوم كان في القديم نوعاً من لعب الكرة او الطابة · والمكان الذي اجتمع فيه نواب الشعب كان ملعباً للبوم · ويمين ملعب البوم رسم جميل

فارسل الملك اليهم المسيو دي بريزه يامرهم بفض اجتماعهم. فصاح به الخطيب ميرابو قائلاً : « رح وقل الى مولاك اننا نجتمع ههنا بارادة الشعب ولا نخرج الا على رؤوس الحراب »

لا كما زعموا انه قال « ولا نخرج الا بقوة الحراب »

فيالك من ملعب كنت مهداً للثورة الفرنسوية كما ان المزود في بيت لحم كان مهداً للمسيح

ومبادىء الثورة الفرنسوية اخت لمبادىء المسيح غير ان المسيح ابن عذراء والثورة ابنة امة اهين شرفها

فذهب المسيو دي بريزه وابلغ الملك انهم لا يخرجون ولا يتفرقون . فخطر الملك في غرفته ذهاباً واياباً وهو يفتل شاربيه ثم ساله : الا يخرجون. قال كلا يامولاي . قال اذن دعوهم وشانهم

ذلك ان الملكية بدأت تحني الراس امام ارادة الشعب وتخفض من كبريائها امام كبريائه

وبقي الشعب هادئاً من ٢٠ يونيو الى ١٢ يوليو ولكن كما تهدأ العناصر قبل الزوابع الشديدة وفي ١٢ منه بلغ الشعب ان الملك فصل ناكار كما مرَّ بنا فثار الشعب يطلبه في ١٣ واستعد للهجوم في صباح ١٤ . وفي هذا الصباح سار بيلو الى الباستيل بالوف الشعب كما راينا في الفصل السابق

وما هو الباستيل ؟

— هو صخرة هائلة كانت على صدور الباريزيين . سجن مخيف كانت تتخذه الملكية مدفناً حياً لمن تريد التخلص منه من الكتاب والفلاسفة والاشراف وانصار الحرية . وكان الملك يضع الرجل في الباستيل فلا يبقى له امل بالخروج الا اذا ذكره الملك . والملك مشغول الفكر بامور كثيرة فينساه او يتناساه فيقضي السجين عمره في الباستيل ويموت فيه فيدفن سراً باسم غير اسمه الحقيقي . وكان في فرنسا سجون كثيرة على هذا المنوال ولكن اعظمها واشدها هولاً سجن سانت انطوان الذي يلقبونه « الباستيل » . فقد كانت فيه حامية خصوصية من الجند وذخيرة ومؤن وحاكم خصوصي يتولى شانه بالارث عن ابائه

للرسام دافيد الشهير رسم فيه نواب الشعب و رئيسهم بالي قياماً في وسط الملعب وهم يمدون ايديهم ويقسمون انهم لا يتفرقون حتى يضعوا دستوراً للدولة

وهو المركيز دي لوناي · وكان له جدران شاهقة رُكبت عليها المدافع ثخن اعلى الجدار ١٥ قدماً وثخن اسفله ٤٠ قدماً وقد وضع الحاكم في اقبيته ١٥ الف كيلو غرام من البارود لنسفه وهدمه على الذين فيه اذا حاول احد من الشعب او من غيرهم دخوله للاستيلاء عليه وذلك لما كان معروفاً من مقت الشعب له

وقد كان الشعب محقاً في مقته فان الباستيل بعد اذ كان سجناً للمجرمين السياسيين اصبح تجارة قبيحة من اشنع التجارات · فانه لا يستطيع احد ان يحصي عدد الاوامر الملكية التي كانت تصدر بسجن الناس في الباستيل · فان كل ابن يريد التخلص من ابيه او كل اب يحب التخلص من ابنه او العدو من عدوه او كل امرأة تريد ارسال زوجها الى حيث لا يرجع — ما لها الا ان تشتري امراً من هذه الاوامر الملكية وتوصلها الى رجال البوليس فيدفن زوجها حياً في الباستيل الى ما شاء الله · وكان ثمن هذا الامر رخيصاً للمرأة الجميلة لان الوزير لطيف ويجمل ملاطفة السيدات · وقد كان من المسجونين من يقضي في الباستيل ٥٠ او ٤٠ او ٣٠ عاماً ومنهم من يموت فيه واهله يسالون عنه لا يعرفون من امره شيئاً · لذلك كان الشعب يكره الباستيل كما يكره وحشاً هائلاً قائماً في وسط المدينة يبتلع الناس ويفترسهم · ولذلك سهل على بيلو اثارة الكراهة والحماسة في نفسه وقيادته الى ذلك السجن الجهنمي وهو يصرخ امامه — الى الباستيل الى الباستيل

وقد كانت هذه الخلاصة ضرورية للحوادث المقبلة فلنعد الآن الى بيلو والذين يتبعونه

الفصل الرابع عشر

(السلطات الثلاث)

كان بيلو يسير نحو الباستيل في مقدمة جمهور الشعب وهو يفكر بالامر العظيم الذي اقدم عليه . فادرك بعد التفكير صعوبة العمل و رأى حقناً لدماء الشعب ان يذهب الى المجلس البلدي قبل مهاجمة الباستيل

فتبعه الشعب لانه اصبح عظيم الثقة به فوصل بيلو الى الاوتيل دي فيل ووراءه نحو ٣ او ٤ الاف رجل

فدخل بيلو الى قصر المجلس وسأل عن اسم الرئيس . فقيل له انه المسيو دي فلاسيل (١) فقال في نفسه : اذن هو من اعداء الشعب لانه على ما يظهر من الاشراف . ثم قال لمن حوله : احب مقابلته . فاجابوه ان الرئيس مشغول الآن مع الاعضاء بوضع مشروع جديد لتنظيم جندرمة جديدة . فقال لهم بيلو . لقد كان قدومي اذاً في حينه فان معي هنا الوفا للتجنيد ولا ينقصها غير الاسلحة

وكانت هذه الالوف التي تتبع بيلو تجعله مرهوب الجانب لدى كل من رآها فدخل بعض رجال المجلس وابلغوا الامر الى المسيو دي فلاسيل فامر بادخال بيلو اليه

ولما اصبح بيلو بازاء دي فلاسيل تفرس فيه هذا فبادره بيلو بالسؤال قائلاً : أأنت المسيو دي فلاسيل رئيس المجلس

فقال فلاسيل انا هو ولكن اسرع في تبيان غرضك فان وقتي قصير

فقال بيلو احب ان اسألك كم سلطة في فرنسا اليوم يا مسيو دي فلاسيل . فاجاب الرئيس هذا سؤال قد يصعب الجواب عليه . انك اذا سألت المسيو دي بالي اجابك انه ما من سلطة غير سلطة المجمع لوطني . واذا سألت المسيو دروز بريزه اجابك ما من سلطة غير سلطة الملك

فقال بيلو وانت ما رأيك في صاحب السلطة اليوم . فقال دي فلاسيل اما انا فارى

---

(١) دي فلاسيل — هو جاك دي فلاسيل آخر روساء تجار باريز و يقابله رئيس المجلس البلدي في هذه الايام . ولد سنة ١٢١١ ومات سنة ١٧٨٩ بطريقة سيرد تفصيلها في الفصول الاتية

ان السلطة للامة . وبما انك قد سألتني واجبتك فقد جاءت نوبتي في السؤال ونوبتك في الجواب . فقل لي من تقصد من اصحاب هذه السلطات الثلاث

فقال بيلو اقصد الملك . قال وماذا تطلب منه . قال اريد ان يصدر امراً باطلاق سبيل الدكتور جيلبار

فقال الرئيس العله ذلك الكاتب الذي سجن من اجل الكراس . قال نعم وهو فيلسوف شهيد الحرية . قال لا تطمع في ان يستقبلك الملك فانه مشغول عنك . قال اقصد المجمع الوطني اذاً واطلب منه الافراج عن الدكتور . قال ولكن طريق فرساليا مسدودة والجنود تحرسها . قال اذهب بهذه الالوف التي معي . قال فالجنود تفرقها بالقوة . فقال بيلو اذاً اترك الملك والمجمع واقصد الامة فافتح بها باب الباستيل واستولي عليه

فرفع دي فلاسيل راسه وقال تستولي على الباستيل وبأي شيء يتم لك ذلك . فقال بما في اقبيتك من براميل البارود مر بتسليمها الينا . فقال دي فلاسيل اظنك تمزح في كلامك

فدنا عند ذلك بيلو من الرئيس وقبض عليه بكلتا يديه من طوقه وقال . كلا لا امزح اعطني مفاتيح الاقبية والا استدعيت رجالي بالحال

فامتقع وجه الرئيس وظهرت فيه لوائح الغيظ ولكنه كظم ما في نفسه وقال له : تصنع حسناً باراحتي من هذا البارود فانني في خوف دائم من ان ينفجر فيؤدي بالمجلس. انزل وتصرف به كما تشاء

فتركه بيلو ثم قال تشجعني على طلب آخر . قال ماذا تريد . قال اتعرف حاكم الباستيل. قال اسمه المسيو دي لوناي وهو صديقي . فقال بيلو اذا كان صديقك فلا بد انك تكره ان تصيبه مصيبة . فقال دي فلاسيل نعم اكره ذلك . فقال بيلو. فاكتب اليه اذاً ان يسلمني اما الدكتور جيلبار واما الباستيل

فقال دي فلاسيل بهدوء انك تعلم انني اذا طلبت ذلك منه فهو لا يجيبني . قال دع هذا اذاً واكتب لي اذناً بالدخول الى الباستيل

فقال دي فلاسيل اكتب لك هذا الاذن ولكن اعلم انك تدخل وحدك . قال اعلم. قال واعلم ايضاً انك اذا دخلت الى الباستيل فربما لا تخرج منه ابداً . قال اعلم ذلك ولكن ورائي الوفاً تخرجني اكتب الامر ياسيدي . فاخذ المسيو دي فلاسيل قلماً وكتب بعد الحاح بيلو ما ياتي :

« حضرة حاكم الباستيل
« نحن رئيس المجلس البلدي في باريز نرسل اليك المسيو بيلو ليخابرك بامور تتعلق بالمدينة
١٤ يوليو ١٧٨٩ « دي فلاسيل »

ثم ناول هذه الورقة الى بيلو فقال ارجوك ان تقرأها لاني اجهل القراءة · فقرأها دي فلاسيل عليه وما اتى على آخرها حتى صاح صائح من ورائه قائلاً : بقي عليك ذيل يا دي فلاسيل · فالتفت دي فلاسيل وقال من هذا · فقال القادم انا مارات

فصاح بيلو مارات الفيلسوف والطبيب · قال مارات نعم انا كما تقول · خذ القلم يا دي فلاسيل وضع الذيل الذي امليه عليك

فنظر اليه دي فلاسيل بعينين متقدتين غيظاً وساله ما هذا الذيل · قال هو هذا « ان اخانا بيلو رسول وما على الرسول الا البلاغ فحياته مطلوبة من ذمتك وشرفك »

فذيل دي فلاسيل كتابه بهذين السطرين والقاه الى بيلو · ثم طلب منه ان لا يبدأ باخراج البارود من الاقبية قبل سفره خوفاً من الانفجار · و بعد ذلك نزل سلم القصر وركب مركبته وقبل مسير المركبة صاح بالسائق — الى المجمع الوطني · وقد قصد بذلك ايهام الشعب المجتمع حول المجلس انه يقصد المجمع الوطني فصفقوا جميعاً تصفيق الارتياح والاستحسان اما مارات فنظر اليه قبل ان يغيب عن البصر وقال لبيلو : اقسم براسي ان هذا الرجل يسير لا لمقابلة المجمع الوطني بل الملك

فقال بيلو اتريد ان امر بالقاء القبض عليه · قال دعه الآن فانه لا يفوتنا في مستقبل فقال بيلو فلنهتم الآن اذاً بتوزيع البارود على الرجال

الفصل الخامس عشر

(امام الباستيل)

ثم نزل الاثنان الى اقبية القصر فتبعهما الشعب يطلب البارود وكان بيلو قد نظمه تنظيم الجنود اي جعل لكل فريق منهم روساء يقودونهم فمنع الروساء تزاحم الشعب على الاقبية · وكان البارود موضوعاً في براميل صغيرة سعة كل واحد منها ٢٠ ليبرة فاصطف جماعة من الرجال من داخل الاقبية الى خارجها يناول بعضهم بعضاً تلك البراميل ويخرجونها لتوزيعها على المنتظرين

وكان اعضاء المجلس البلدي مجتمعين في ذلك الوقت يبحثون في تنظيم جندرمة

جديدة يسمونها الحرس الوطني (غارد ناسيونال) وقد اختلفوا في من يجعلونه قائداً لهذا الجند الجديد واذا بالمسيو دي فلاسيل عائد في مركبته مسرعاً . وكان السبب في رجوعه ان الجنود التي كانت تحرس طريق فرسايل حيث يقيم الملك منعته من المرور واكرهته على الرجوع

وكان الشعب قد اخذ ما اخذ من البارود ولكن البارود بلا سلاح لا يغني شيئاً . فلما ابصروا المسيو دي فلاسيل راجعاً صاحوا به من كل جانب . نطلب سلاحاً نطلب سلاحاً

فقال المسيو دي فلاسيل السلاح موجود في الترسانة فصاح الجمع هلموا الى الترسانة

فذهبوا ولكنهم لم يجدوا شيئاً فعادوا يرغون ويزبدون

فقال لهم دي فلاسيل ربما وجدتم سلاحاً في دير الشارتره . فقصدوا الشارتره وفتشوه فلم يجدوا فيه آلة جارحة . وفي اثناء هذا الوقت كان بيلو ومارات لا يزالان في الاقبية يخرجان البارود فاجتمع دي فلاسيل باعضاء المجلس واقترح ان يرسلوا الى حاكم الباستيل وفداً يسالونه ان يرفع المدافع عن اسوار الباستيل اطفاء لثائرة الشعب وارضاء له

ذلك ان الشعب كان شديد السخط على تلك المدافع التي كانت تبرز فوهاتها من فوق جدران الباستيل الشاهقة كانها تهديد دائم للشعب . فحسب دي فلاسيل انها اذا سُحبت الى الداخل سكت الشعب وخمد غضبه

فاجابه الاعضاء الى هذا الاقتراح وارسلوا هذا الوفد

واتفق عودة الشعب من الشارتره في هذا الوقت وهم يرغون ويزبدون ويطلبون سلاحاً . فحاول دي فلاسيل تسكين خواطرهم بان اقترح عليهم ان يصدر امراً بصنع ٥ الفاً من الحراب والرماح على عجل

فنظر اليه مارات بغيظ وقال لبيلو والذين حوله لا ريب ان هذا الرجل يغشنا . اذهب يا بيلو برجالك الى الباستيل وسارسل اليك بعد زمن قليل عشرين الف رجل مسلح

وكان بيلو قد سمع قبل اليوم باسم مارات (١) فان شهرة هذا الرجل لدى العامة كانت



(١) مارات — هو جان بول مارات الكاتب المشهور بتطرفه وشدة تاثيره على العامة ابان الثورة الفرنسوية . كان يحرر في ذلك الزمان جريدة « نصير الشعب » ويحرض فيها العامة على القتل والتطرف وكان يقول في جريدته انه لا تصلح امور فرنسا حتى نقطع ٣٠٠ الف راس من روؤس رجالها الاشراف . وكان اكبر المحرضين على فتح الباستيل . ولد في سنة ١٧٤٤ وسيرد تفصيل الكلام عن اعماله الغريبة ابان الثورة في الاجزاء القادمة

عظيمة جدًا وتاثيره عليها اعظم . فعلم بيلو انه ممن اذا قالوا فعلوا . فجمع من كان مسلحًا من جماهير الشعب واستعد للمسير بهم الى الباستيل

اما مارات فوقف على مكان مرتفع وصاح : انا مارات اسمعوا لي كلمتين

فانصت الجميع بسرعة غريبة واصغوا اليه فقال لهم : تطلبون سلاحًا . فاجابته الالوف المجتمعة نعم نريد سلاحًا . فقال مارات . اتبعوني تجدوا ما تطلبون هلموا الى الانفاليد . ونزل للمسير في مقدمتهم

وكان دي فلاسيل يرى الجماهير من نافذة القصر وقد استعدت للسير فصاح بهم ايها الاخوان ما هذه الاوراق الخضراء التي في قبعاتكم

فوقف الشعب ملتفتًا الى الرئيس وكانت الاوراق المذكورة هي اوراق الشجر الخضراء التي وضعوها في قبعاتهم يوم حادثة كاميل دي مولين

فاجابته جماهير الشعب : انها رمز الى الامل

فقال الرئيس نعم ولكن الاخضر هو لون الكونت دارتوى وشعاره كما تعلمون . فهل تحملون شعار الامراء

فصاح الشعب لا لا . فقال دي فلاسيل فاحملوا اذًا ايها الاخوان شعار مدينتنا وامنا باريز وهو اللون الابيض واحمر

فصرخ الجميع نعم نريد شعار باريز الابيض والاحمر . ثم اخذ الجميع الاوراق الخضراء من قبعاتهم وداسوها باقدامهم (١)

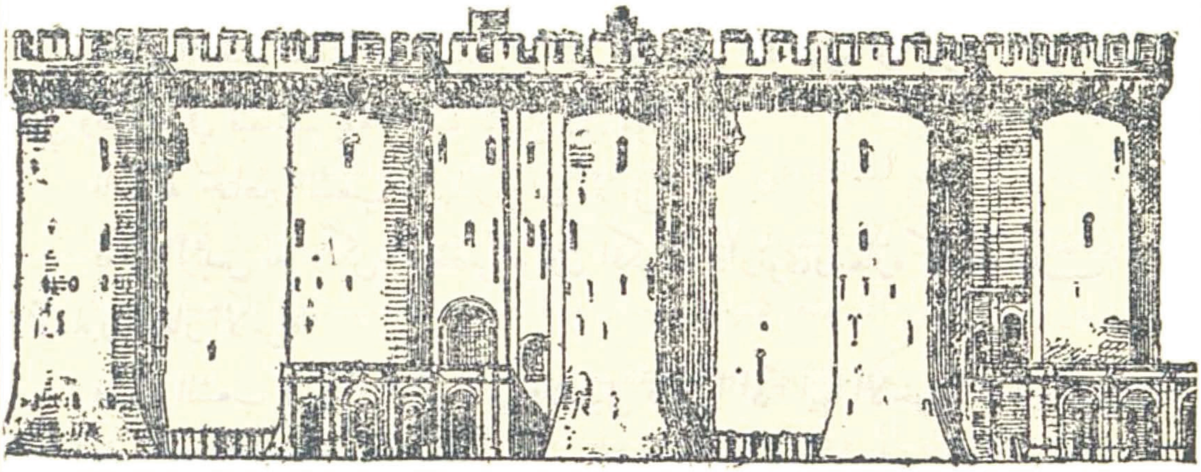
فانفتحت عند ذلك نوافذ المنازل التي فوقهم بسرعة غريبة ووقعت منها شرائط وحمائل بيضاء وحمراء فتخاطفها الشعب وجعلوا قطعها في قبعاتهم . ولكنها كانت غير كافية لالف

(١) هذا هو اصل الراية الفرنسوية المثلثة الالوان . وبعد زمن قصير لاحظ الجنرال دي لافاييت الذي حارب في اميركا مع واشنطون لتحرير اميركا وسيرد الكلام عليه مع رسمه فيما يلي — ان اللون الازرق واللون الاحمر هما شعار اسرة اورليان فاضاف اليهما اللون الابيض فاصبح شعار حكومة الثورة الالوان الثلاثة : الابيض والازرق والاحمر وهي الوان الراية الفرنسوية الآن . وقد قال لافاييت كلمة شهيرة يوم اشار باضافة اللون الابيض اليها وهي : « اني اعطيكم الآن شعارًا سيطوف الكرة الارضية كلها » وصدق فان حروب فرنسا في هذه المائة سنة قد نشرت الراية الفرنسوية المثلثة الالوان في جميع اقطار العالم

منهم · فنزعت ستائر النوافذ وحال الحرير وسواها فمزقت والقيت اليهم فتخاطفوها واتخذوا منها شعارهم

وبعد ذلك ساروا وهم فريقان فريق يلحق بمارات وهو يقصد الانفاليد في طلب السلاح وفريق يلحق ببيلو وهو يقصد الباستيل · وكان عدد هولاء ٥٠٠ او ٦٠٠ رجل

ولكنهم قبل ان يصلوا الى الباستيل انضم اليهم اشد العامة تحمساً في الازقة المؤدية الى شارع سانت انطوان · واتفق وصولهم الى الباستيل عند وصول نحو مائة من جند الحرس الفرنسوي اليه مع جمهور آخر من العامة اتت من شارع سانت انطوان



لقينا عناء كثيراً في التفتيش عن رسم الباستيل لوضعه تحت انظار القراء لانه قد هدم منذ بدء الثورة ولكن فزنا بعد تفتيش كثير في مكاتب اوربا ومصر بوجود رسمين في احدي الانسيكلوبيذيات هذا احدهما وهو يمثل جدران الباستيل من الخارج · والرسم الثاني في ختام هذا الفصل

وكان امام جدران الباستيل فريق من الشعب واقفاً بعضهم ساخطون و بعضهم متخوفون فلما وصلت هذه الفئات الثلاث زاد الساخطون سخطاً واجترأ المتخوفون فاخذ الناس ينظرون شزراً الى المدافع البارزة فوق اسوار الباستيل و يتهددونها بقبضاتهم صارخين · — فلتسقط المدافع · فلتسقط المدافع

واتفق في هذا الوقت ان اعناق المدافع سحبت وغابت في نوافذ الباستيل · فصفق الشعب وهتف هتاف الفرح والابتهاج ظناً منه ان المدافع سحبت ارضاء له واصبح اشد حراً ة وتحمساً

وكان بعض حرس الباستيل يخطر على اسواره ذهاباً واياباً وكان من السويسيين فابصره الشعب فصار يصرخ : فليسقط السويسيون

وكأن واحداً من الشعب ملّ الصراخ فاخذ بندقيته واطلقها على الحارس · فوقع وصاصها على اعلى جدار الباستيل قرب المكان الذي كان يمر الحارس به ففتت الحجر ولكن الحارس لم يلتفت اليه كأن الرصاص لم يطلق عليه

اما الشعب فهاله لاول وهلة اطلاق النار على الباستيل · وكانت هذه الطلقة الاولى· فاخذوا يتجادلون ويتباحثون · وكثيرون منهم افتكر عند اطلاق النار على الباستيل انه جرم عقابه الاعدام

واما بيلو فكان ينظر الى تلك الاسوار الشاهقة التي امامه فخيل له ان الباستيل وحش هائل كالوحوش القديمة المصفحة بالحراشف القوية · ثم جعل يعد نوافذه التي تبرز منها فوهات المدافع وثقوبه التي تطلق منها البنادق كانها عيون للباستيل يرى بها اعداءه · فازداد علماً اذ ذاك بصعوبة الامر الذي اقدم عليه

وكان مارات قد وعده بارسال ٢٠ الف رجل مسلح كما مرَّ بنا فوجد بيلو تحت اسوار الباستيل بين الجمع رجلاً وعده بارسال ٣٠ الفاً اخرى · وهذا الرجل هو كونشون المسمى بمرابو الشعب · فان مارات اوصى بيلو بالاعتماد على هذا الرجل لشدة تاثيره على العامة فطلبه بيلو ووجده فشجعه كونشون ووعده ليرسل اليه الوف الرجال ووعده انه ياتيه بهم قبل خروجه من الباستيل ومقابلته حاكمه

ثم سار كونشون في طريقه ودخل بيلو الى الباستيل لمخابرة الحاكم والشعب هائج مائج كانه البحر العجاج المتلاطم بالامواج

وكان بيتو يتبع بيلو فامره بيلو ان ينتظره خارج الباستيل لتذكير الشعب به اذا ابطأ ولم يخرج لشر يصيبه في داخل الباستيل

وكان امام مدخل الباستيل وراءه جنود يحرسون الطريق وهي تؤدي الى مستقر حاكم الباستيل المسيو دي لوناي · فاظهر بيلو للجنود التذكرة التي كتبها له دي فلاسيل فتركوه يمرّ فسار حتى وصل الى الحاجز الحديدي الداخلي فوجد وراءه المسيو دي لوناي واقفاً

وكان المسيو دي لوناي حاكم الباستيل كهلاً بين الخامسة والاربعين او الخمسين سنة وكان في ذلك اليوم مرتدياً بثوب كتاني رمادي ولابساً شعار وسام سان لويس وهو يحمل في يده عصا في داخلها نصلة كبيرة شبيهة بالسيف · وكان هذا الرجل سيئ الخلق من حيث المال فانه كان اشد الحكام الذين تقدموه عناية بجمع المال · وقد كان راتبه السنوي

٦٠ الف فرنك فكان يضيف اليها ٦٠ الف اخرى ياخذها رشوة من اية طريق اتت وكان للمسجونين في ذلك السجن الهائل تعزية جميلة وهي حديقة صغيرة كانوا يتنزهون فيها فلما اتى دي لوناي اجر هذه الحديقة رغبة في قليل من المال فحرم المسجونون نور الشمس وهواء السماء · وكان شديد العناية بالسجناء الاغنياء لانهم يشترون راحتهم باموالهم فربما اعطاهم بالمال كل شيء حتى عشيقته التي كان يسكنها في الباستيل معه · ولو اردنا تعداد ما كان من هذا القبيل لضاق بنا المقام على اننا نرد طالب المزيد منه الى كتاب « فضائح الباستيل » فان فيه كلاماً كافياً

وكان المسيو دي لوناي مع ذلك رجلاً شجاعاً · فان الشعب كان يزئر منذ امس تحت اسوار الباستيل زئير الاسود و يقرع بلاط الاسواق بالسلاح وهو رابط الجاش وان كان اصفر اللون · وكان عنده في الباستيل اربعة مدافع وجنود من السويسيين والانناليد فلم يعبأ ببيلو اذ رآه داخلاً عليه بل بقي ينتظره في مكانه وراء الحاجز الحديدي ولما اجتاز بيلو هذا الحاجز واغلق الباب وراءه سمع له بيلو صوتاً مخيفاً ارتعدت له فرائصه بالرغم عما هو مشهور به من ثبات الجاش وقوة القلب

واذ اصبح على مقربة من دي لوناي بادره هذا بالسؤال قائلاً بنزق

— وماذا تريد مني ايضاً

فقال بيلو تقول « ايضاً » مع انني لم ارك قبل الآن · قال اسرع واخبرني من اين قدومك · قال من الاوتيل دي فيل وهذا كتاب من المسيو فلاسيل · ثم اعطاه الكتاب

فتناول دي لوناي الكتاب وقال له بعد تلاوته : فما هي حاجتك · قال حاجتي ان تسلمنا الباستيل

فقال الحاكم كانه لم يسمع كلام بيلو ماذا تقول

فقال بيلو اقول اني داخل الآن الى الباستيل باسم الشعب لاسالك ان تسلمه اليّ

فهز الحاكم رأسه وكتفيه وقال · ان هذا الشعب حيوان لا يفهم الامور التي يطلبها.
فقال له بيلو ماذا تقول

فقال الحاكم وماذا يريد الشعب ان يصنع بالباستيل · قال يريد ان يهدمه · قال ولماذا يطلب هدم الباستيل مع انه ليس سجناً للشعب بل للفلاسفة والعلماء والاشراف والوزراء والامراء وغيرهم من اعداء الشعب

فقال بيلو ذلك يدل على ان الشعب عادل محب لذاته ولغيره على السواء فهو يكره الباستيل

ليس لانه سجنه بل لانه رمز الى الظلم والعبودية

فقال الحاكم يظهر لي انك لست من بارىز ايها الرجل فلست تعرف ما في الباستيل من السلاح والذخائر والرجال فتعال معي لاريكها كلها

فخاف بيلو ان يكون الحاكم قد اراد به شرًا ولكنه تجلد وتشدد وسار وراءه

فاصعده الحاكم الى اسوار الباستيل واراه المدافع والحامية فلما راى بيلو المدافع وجدها لا تزال في اماكنها فقال انك لم تنزلها بعد . قال كلا ولكني سحبتها سحبًا . قال ولكني ساخبر الشعب بذلك فانه يطلب انزالها . قال اصنع ما تراه . قال وهل تطلقها على الشعب قال اذا بدأ الشعب باطلاق النار . فقد ارسل اليّ اليوم المجلس البلدي وفدًا يطلب مني وعدًا بان لا ابدأ باطلاق النار على الشعب وان اسحب هذه المدافع فوعدته وسحبتها

وفيما هما يتحادثان مدّ بيلو بصره من سطح الباستيل الى الشوارع التي تحته فابصر فيه الوفًا من الشعب متجهة نحو الباستيل كانها النمل في كثرتها . وكانت هذه الجماهير رجال مارات وكونشون اللذين وعدا بيلو بها

فلما وقع نظر حاكم الباستيل على هذه الالوف الجديدة التي كانت سائرة للانضمام الى الالوف المتجمعة تحت جدران الباستيل ثار الغيظ في نفسه فتقدم من بيلو وصاح بغضب ويل لك تدخل علينا للمخابرة بالسلم مع ان رفاقك يستعدون للحرب . هلموا الى المدافع ايها الجنود

فتقدم بيلو عند ذلك من الحاكم وقبض عليه من وسطه ورفعه عن الارض بكلتا يديه القويتين قائلاً : وويل لك انت ايضًا فانك تستحق ان اقذف بك من هذا الشاهق الى الحضيض فتتكسر اربًا اربًا

فارتفع في هذا الحين من تحت جدران الباستيل صراخ الوف من الشعب . وصعد ماجور الباستيل المسيو لوسم يطلب بيلو فلما رآه صاح به : اظهر نفسك لهذا الشعب بالحال فانه يثور ويصرخ ظنًا منه انه قد اصابك شرّ

فترك بيلو دي لوناي وقصد طرف الجدار واشرف من هنالك على جماهير الشعب فلما ابصروه صفقوا تصفيقًا شديدًا وهاجوا وماجوا . فكان بيلو وهو على اعالي الباستيل بمثابة روح الثورة الفرنسوية تدوس قمة الظلم بقدمها وتشرف منها على فرنسا وجميع اقطار العالم

وبعد ذلك اخذ حاكم الباستيل يستعد للقتال فالتفت الى بيلو وقال له باسم الملك

آمرك بالخروج من هذا المكان

فقال بيلو مستهزئًا احذر فانك ان اخرجتني من هذا المكان باسم الملك فاني لا البث ان ادخل اليه باسم الشعب . ثم التفت بيلو الى جنود السويسيين والانفاليد وقال لهم : من اي حزب انتم . معنا اومعهم ؟ فصاح به دي لوناي . اخرج والا اخرجتك بالقوة

فقال بيلو باسم الامة و باسم اخوانك اطلب منك تسليم الباستيل وحقن الدماء

فقال دي لوناي لا تسمِّ اخوتي اولئك الذين يصرخون : « فليسقط الباستيل وليمت حاكمه » فان هولاء اخوتك لا اخوتي

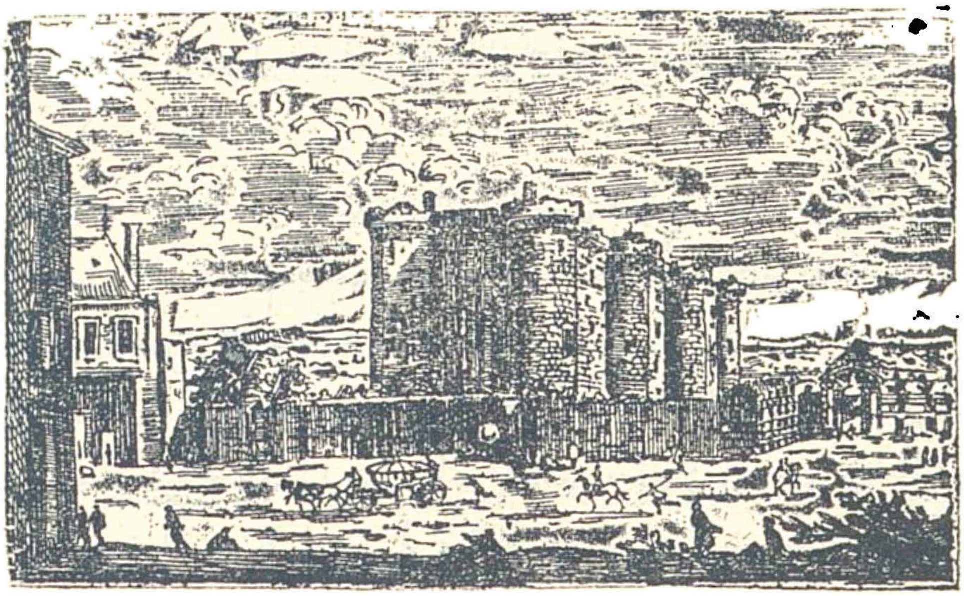
فقال بيلو اذًا اطلب ذلك منك باسم الانسانية

فقال دي لوناي ان الانسانية لا تطلب ان تهاجموا وانتم مائة الف رجل مائة رجل يقومون بواجباتهم في هذا المكان

فنادى بيلو الجنود قائلاً : سلموا ايها الاخوان تسلموا وتُحقن الدماء

فصاح به الحاكم حينئذٍ ملء فمه قائلاً . ان لم تخرج امرت باطلاق الرصاص عليك في الحال

فنظر اليه بيلو نظرة استخفاف كانه يقول له انك عاجز عن ذلك . ثم خرج الى الشعب الذي كان ينتظره بصبر فارغ



منظر الباستيل وشارع سانت انطوان من حيث هاجمه الشعب

وهو رسم تاريخي جليل

الفصل السادس عشر

(الباستيل)

ولما خرج بيلو من الباستيل ابصر الوف الشعب المؤلفة في هياج واضطراب فتقدم منه كونشون وساله ماذا جرى . فاخبره خبر الحاكم . فقال كونشون لقد قضى على نفسه

فقال بيلو ولكن كم من الدماء ستسفك في هذا النهار . فقال كونشون لا بأس فانه لا يوجد من الخبز ما يكفي نصف هذا الشعب فاذا مات النصف الثاني استراح واراح . ثم التفت الى الشعب وقال: الا تستحسنون هذا الراي ايها الاخوة. فنادى الشعب قائلاً : بحماسة غريبة — اصبت . اصبت

فقال بيلو وكيف نفتح الباستيل و بيننا و بينه خندق عظيم . فقال كونشون نملأ هذا الخندق من جثثنا فيجتاز عليها الباقون . ثم التفت الى الشعب وقال : الا ترون رايي ايها الاخوة . فاجابوه جميعاً نعم نعم نملأه بجثثنا

وفي هذا الحين ظهر على سطح السور المسيو دي لوناي حاكم الباستيل . فابصره كونشون فناداه قائلاً — ابدأ بالقتال . فادار له دي لوناي ظهره دون ان يلتفت اليه

ولو ان الحاكم تهدد كونشون لاحتمل كونشون تهديده الا انه لم يحتمل احتقاره . فتناول بندقيته واطلقها على الحاكم . فسقط احد رفاقه قتيلاً على سطح الباستيل

وكأن هذا الطلق كان علامة للجميع فان البنادق اطلقت على الباستيل من كل الجهات فاصاب رصاصها حجارته الصماء ففتتها

ثم ساد السكون كأن الشعب هاله الامر الذي اقدم عليه فلبث صامتاً

ولكن لم يطل هذا الصمت فان الباستيل ما لبثت اسواره ان تكللت بدخان كثيف واومض البرق في وسط ذلك الدخان وتلاه صوت كالرعد القاصف . فعلم الشعب ان هذا الصوت صوت مدافع الباستيل

ولم يكن يخطر في بال الشعب ان الباستيل يطلق ناراً عليه لان الشعب كان قد تعود ان ينال ما يطلب من الحكومة فحسب هذه المرة انه اذا طلب الباستيل ناله ايضاً . فلما رأى النار وسمع صوت المدفع وابصر الذين جرحوا علم ان المركز حرج جداً . الا انه لم يخطر له الفرار بالرغم عن حرج الموقف فانه كان كثير العدد وقد خجل من الفرار لكثرة عدده . فاجاب على مدافع الباستيل باطلاق البنادق مئات والوفاً . وكان رصاص هذه

البنادق لا يصيب الا جدران الباستيل مما جعل الشعب يمل هذا القتال لانه كان لا يؤثر شيئاً

فتتالت الاقتراحات حينئذٍ لفتح الباستيل . فان رجال المطافىء اقترحوا ان يقذفوا الماء بمضخاتهم الى مدافع الباستيل فيطفئوا جذوات النار قبل ان تضرم البارود لاطلاق المدفع . ولم يذكروا ان المضخات لا توصل الماء الى اكثر من ثلثي اسوار الباستيل

ومنهم من اقترح ان يُقذف الباستيل بزيت قابل للالتهاب فيحترق

ومنهم من اقترح ان تبنى آلة للهدم كالآلة التي كان يستعملها الرومانيون فيفتحوا بها ثغرة في الباستيل و يدخلوا اليه منها

وكان بيلو سامعاً هذه الاقتراحات كلها فلم يعجبه منها شيء : ولكن خطر له امر فخرج من صفوف الناس وتقدم من الجسر الاول تحت مطر من الرصاص كان يحصد الارواح حصداً و بيده فاس عظيمة . ثم تدلى واخذ يضرب سلاسل الجسر لقطعها رغبة في المرور عليه الى ساحة الباستيل الاولى وكان الرصاص منصباً على الشعب وعلى بيلو كالبرَد والشعب لاه عن نفسه بمشاهدة هذا الرجل الجريء الذي خاطر بنفسه هذه المخاطرة حتى اتى بيلو على قطع السلاسل وسقط الجسر . فصاح الشعب صياح الفرح واندفع على الجسر الى ساحة الباستيل الاولى

فعلم حاكم الباستيل من صراخ الشعب ان الشعب قد فاز بامر يطلبه . واذا بالمدافع الاربعة التي مرَّ ذكرها قد فتحت افواهها وقذفت ناراً مهلكة على الساحة الاولى فحصدت من فيها حصد المناجل السنابل في الحقول . فسقط من الشعب ١٠ او ١٢ رجلا قتيلاً و ١٥ او ٢٠ جريحاً . ومنذ هذا الحين اصبح القتال شديداً وزاد موقف الشعب حرجاً

فبلغ الهياج والاضطراب مبلغهما وحميت نار القتال بين جنود الحاكم وجماهير العامة فطبقت السماء اصوات المدافع والوف البنادق . ورأى الضباط ان الجنود تضعف عزائمها فاخذوا هم انفسهم البنادق وصاروا يطلقونها

اما الشعب فكان قد استمات وهو يصرخ « نريد الباستيل » ومما زاده جراءة وحماسة ان جماعة الحرس الفرنسوي اتوا بمدفع وساروا يحاربون معه

ولكن في وسط الهياج والنار مصبوبة والشعب يجمع جرحاه وقتلاه ليخرجهم من ساحة العراك وينتفع بسلاحهم ظهرت جماعة من الناس تحمل علماً ابيض وهي تشق الجماهير قاصدة الباستيل

فعلم بيلو بعد السؤال ان هذه الجماعة وفد ارسله المجلس البلدي الى حاكم الباستيل ليقترح عليه عدم اطلاق المدافع والكف عن القتال فلما علم بيلو بذلك طلب من كونشون الكف عن القتال ايضاً ريثما يرى جواب الحاكم . ذلك ان الشعب بازاء ما رآه من امتناع تلك القلعة قد اصبح راضياً بنصف انتصار اذا كان حاكمها يرضى بنصف انكسار

فامر كونشون اثنين من رجاله ان يكف الناس عن اطلاق النار فانسل هذان الرجلان بين الجمع ولم تنقض بضع دقائق حتى بطلت اصوات البارود وسكتت البنادق

ولما وصل الوفد الى الساحة الاولى سكتت نار الساحة الثانية واشير اليهم بالتقدم فتقدموا ودخلوا واقترحوا على الحاكم ذلك الاقتراح فصاح بهم الحاكم : «لا تطلبوا المستحيل ايها الباريزيون لقد بدأتم بالعدوان فلا تلوموا احداً غير انفسكم » واذ الحوا عليه تهددهم بمثل ما تهدد به بيلو وهو ان يامر باطلاق النار عليهم اذا لم يخرجوا على عجل

فخرجوا ولما اصبحوا خارجاً علم بيلو وكونشون من وجوههم انهم اخفقوا سعياً . فصاح كونشون : قد قضى الله على هاته القلعة قضاء لا مرد له . الى السلاح ايها الناس

فعلت اصوات البنادق من الجانبين . وكان الوفد لم يغب بعد واذا بطلقات هائلة من المدافع قد حصدت الناس فاصاب الرصاص واحداً من الوفد فخر على الارض صريعاً

فلما راى الناس هذا الرجل يخر صريعاً وهو رسول سلام وذو صفة مقدسة محترمة عند جميع الشعوب غلت دماؤهم في عروقهم فبلغ الهياج منهم مبلغه وازدادت طلقات النار من الجانبين

ولكن الحاكم ورجاله احسوا بانهم مغلوبون بازاء عدد خصومهم وشدة تحمسهم وعنادهم . وراوا ان هذه الامواج العامية لم يبق شيء يردها ولا الموت . فتقدم الماجور دي لوسم رئيس حامية الباستيل وشرح ذلك للحاكم وذكر له ما سفك وما سيسفك من دماء الشعب قبل فوز احد الفريقين . فقال له الحاكم بوقاحة . وماذا تريد ان اعمل انسلم القلعة لهم . قال الماجور ولكنك تعلم انه يكاد لا يبقى لدينا ذخيرة وغداً لا يبقى لدينا مؤونة فنضطر الى التسليم . فلماذا رفضت اقتراح وفد المجلس البلدي من كف النار حقناً للدماء

فقال الحاكم انك تعتقد يامسيو دي لوسم انه يجب علينا الطاعة لهذا المجلس ورئيسه . فقال دي لوسم نعم يجب ذلك اذا لم يكن لدينا امر من الملك . فقال الحاكم اذا كان يجب علينا الطاعة للرئيس دي فلاسيل فتعال واقرأ

قال هذا واخرج من جيبه ورقة عليها بضعة سطور فقرأها دي لوسم فاذا فيها ما ياتي

« شد عزمك وادفع دفاعاً حسناً فانني اشغل الباريز بين بالوعود والحمائل وسيردك قبل
« المساء نجدة من المسيو بزانفال «دي فلاسيل »

فقال دي لوسم بعد تلاوة هذه الورقة ومن جاءك بها . قال وجدتها ضمن الورقة التي جاءنا بها الرجل الذي طلب منا تسليم الباستيل . لقد حسب نفسه انه يجيئنا بالامر بفتحه وما درى انه يجيئنا بالامر باغلاقه

فسكت دي لوسم واطرق مفكراً . فقال له الحاكم : اذهب الآن الى مركزك يامسيو دي لوسم ولا تتركه الا اذا ناديتك . فاطاع الماجور ساكتاً . ثم تقدم الحاكم من الجنود وامرهم أن يحسنوا تسديد المدافع والبنادق على الناس فاطاعوا واطاعت المدافع كما اطاع دي لوسم

ولكن الشعب كان يجاوب على كل طلق ناري بصراخه « نريد الباستيل » ويرسل الى اسوار هذا البناء العظيم رصاص بنادقه ولعنات غضبه وانتقامه . وكان عند كل طلقة يزداد تحمساً وهياجاً وفي جملته نساء واولاد وشيوخ يقاتلون بحمية الشبان . وكانت الجموع التي حول الباستيل يبلغ عددها نحو مائة الف نفس مستميتة مستقتلة

وكان بيلو يفكر في الطريقة التي تنيلهم اكليل النصر . فان مدافع القلعة وبنادقها كانت تحصد الشعب حصداً وبنادق الشعب لا تؤثر الا في حجارة الباستيل لانها لا تصيب سواها . فخطر له على حين بغتة امر فصرخ ملء فمه . اريد مركبة . وكان بيتو بجانبه . فصرخ اثنتين لا واحدة

فلم تمض برهة حتى جاء الناس بعشر مركبات

فصاح بيلو : واريد تبناً او قشاً . فصرخ بيتو : تبناً وقشاً . فجاء الشعب بعد برهة بمقدار عظيم منهما . ولو لم يصرخ بيتو « كفى كفى » لجاءوا منهما بكومة يبلغ ارتفاعها ارتفاع الباستيل

فاخذ بيلو وبيتو وغيرهما من الرجال المركبات وملأوها قشاً ودفعوها امامهم بدلاً من ان يجروها جرا وتقدموا بها من الخندق الثاني الذي يفصلهم عن الباستيل وكان على هذا الخندق جسر مفتوح يجب قطع سلاسله ليسقط فيصبح صالحاً للمرور عليه . فاضرم بيلو النار في التبن وفي المركبة ليضعها على السلاسل فتحمى وتنقطع ويسقط الجسر . فلما

ابصر الحاكم ذلك هاج وماج وصاح برجال المدافع اصلوهم نارًا تشويهم شيًا · فاطلقوا عليهم نار المدافع والبنادق ولكن النار كانت تصيب القش فلا تؤثر شيئًا او تصيب المركبات فتكسرها دون ان تصيب الرجال الذين وراءها · وما زال هولاء الرجال يدفعونها وهي تلتهب حتى وضعوها على السلاسل · وكانت ساعة هائلة فان الرصاص كان ينصب عليهم كالبرَد والشعب ناظر اليهم وهو يجيب على رصاص المدافع برصاص البنادق

فصعد الحاكم الى سطح الباستيل ليرى اذا كانت النجدة التي وعدوه بها قداتت ولما لم يرَ شيئًا نزل وفي وجهه علائم الغضب والغيظ الشديد

وفي هذا الوقت سمع جلبة في الساحة الثانية فنظر ليعلم السبب فابصر ان سلاسل الجسر قد قُطعت · قطعتها النار وكرات المدفع الذي كان يطلقه الحرس الفرنسوي كما مر بنا فسقط الجسر وانفتح الحاجز الحديدي فاندفع الشعب بفرح وهياج عظيم قاصدًا دخول الباستيل

فعلم الحاكم انه قد ضاع كل امل · فهبت ريح الغيظ والياس في نفسه فتناول فتيلاً مضطرمًا وسار ركضًا الى قبو خصوصي في الباستيل

وكأن جنود الحامية قد ادركت الامر الذي يريده الحاكم فصاحوا : البارود البارود وركضوا يطلبون الحاكم

فادركه جنديان فوضعا حربتيهما في صدره ليحولا بينه وبين مراده

وكان الشعب ينظر اليهم دون ان يعلم سبب هذا المشهد · واذا بالحاكم يصيح ماء فمه : اذا كانوا يدخلون الباستيل فهذه النار في يدي وهذا مخزن البارود القيها فيه فانسف هذا السجن ونصف شارع سانت انطوان

فلما سمع الشعب هذا القول خيل لهم ان الارض تميد بهم · فاضطربوا وهم سكوت لا يدرون ماذا يقولون

وكان بيلو في مقدمتهم فلما سمع بنسف الباستيل ذكر الدكتور جيلبار فارتعدت فرائصه وخار عزمه

فكان مشهد مؤثر جدًا · فان الحاكم كان واقفًا و بيده الفتيل المضطرم لا يقتضي نسف الباستيل وهدمه حجرًا على حجر الا القاءه هذا الفتيل من يده في المخزن · وجنديان يحولان بينه وبين المخزن وحربتاهما على صدره والشعب واقف خارجًا وقفة الرهبة والسكون

واذا بيلو يصيح بالشعب اذكروا المسجونين ايها الاخوة ولا تهجموا · فالتفت بعضهم

الى الحاكم وقال له ماذا تطلب · قال اطلب ان اسلمكم الباستيل تسليماً شريفاً · ارجعوا من حيث اتيتم لاكتب صورة التسليم · فرضي بيلو بذلك لانهم خافوا على المسجونين رحمة بهم ورجع الشعب من حيث اتى · فوضع الحاكم الفتيل المضطرم من يده وتناول قلماً وورقاً واخذ يكتب شروط التسليم

فساد الفرح والابتهاج في الشعب لانه فاز فوزاً عظيماً ولبثوا ينتظرون شروط الحاكم. وبعد هنيهة نظر جندي يشير اليهم بحربته وعلى راسها ورقة فسار بيلو اليه

ولكنه اضطر ان يجتاز الخندق على خشبة فما بلغ نصفها حتى هوت الخشبة فسقط في الخندق · فتبعه يتو ركضاً وقد خاف على حياته

فارتفعت في هذا الوقت اصوات بنادق لا يُعلم من اين خرجت · فما سمعها الشعب حتى اندفع من جديد الى الباستيل لا يلوي على شيء · وكان اندفاعه الوفاً الوفاً كامواج البحر المائلة · فلما رآهم الحاكم اراد ان يتناول الفتيل فسبقه اليه احد الجنود وداسه بقدمه فاطفأه · فاخذ الحاكم سيفه واراد الانتحار فاخذوه منه · ودخل الشعب الباستيل ظافراً منتصراً (١) بعد واقعة تشيب لهولها الولدان

وانتشر الناس في غرف ذلك السجن المائل وصعد منهم بعض الى سطحه فلما ابصرتهم الوف الشعب المؤلفة المجتمعة في الخارج هتفت هتافاً كالرعد القاصف دوى صداه في الجهات الاربع · وكان ظهور هذه الجماعة على سطح الباستيل كظهور روح الحرية للعالم من فوق تلك الجدران القديمة الشاهقة

وهكذا استولى الشعب على الباستيل وسقطت امام ارادته القوية معالم الظلم والعبودية. واما تلك الطلقات التي اطلقت والشعب هادىء ينتظر شروط التسليم فكانت سبباً لهجوم الجماهير على الباستيل وفتحه عنوة واقتداراً فان سببها بقي مجهولاً ولم يُعرف الذين اطلقوها فكان الاقدار شاءت ان لا يوخذ الباستيل الا عنوة واقتداراً ولله حكمة لا تدركها العقول البشرية

---

(١) وقد جعلت الجمهورية الفرنسوية يوم فتح الشعب للباستيل عيداً رسمياً لها تحتفل به في كل ١٤ يوليو · ولما طار في اوربا خبر سقوط الباستيل في يد الشعب الفرنسوي تعانق الناس في اسواق بطرسبرج ولندره وغيرها فرحاً وابتهاجاً « بنهضة الاسد» من عرينه بعد نومه الطويل لاسقاط الظلم ورفع منار الحرية في العالم

الفصل السابع عشر

(الدكتور جيلبار)

كان الشعب عند هجومه الوفاً الوفاً لدخول الباستيل قد حسب ان بيلو اصيب بسوء فزاد ذلك في غضبه وانقضت طلائعه على جندي كان في الساحة فقطعته ارباً اربا فقال كونشون : ان غضب الشعب كالتيار . اذا واجهته لتحول دونه كان اشد ضرراً مما اذا تركته يجري على هواه . ولذلك ترك القتلة وشانهم . ولكن كان معه رجلان يدعيان ايلي وهولين كانا في مقدمة الذين هاجموا الباستيل لفتحه . فلما رأيا الشعب قد بدأ بالقتل حالا بينه وبين فريسته بحجة انهما وعدا حامية الباستيل بانقاذ حياتها . وكان ذلك كذباً ولكنه كذب ممدوح في مثل هذه الاحوال اذا جاز مدح الكذب

ولم يخمد غضب الشعب حتى ظهر له بيلو ووراءه بيتو سالمين لا ضرر بهما غير ما على ثيابهما من الوحل الذي وقعا فيه

ودخل بيلو مسرعاً للتفتيش عن الدكتور جيلبار . فوجد في طريقه رجلاً جالساً مفكراً فامعن النظر فيه فعرف انه المسيو دي لوناي حاكم الباستيل . فلما رآه دي لوناي طوى يديه على صدره كأنه يقول له اسرع واقتلني لاخلص من حياتي . فلم يدنُ منه بيلو ليكلمه مخافة ان يعرفه الشعب فينزل به غضبه . فوقف بيلو متردداً لا يعرف اين يجد الدكتور فرأى دي لوناي حيرته فسأله ماذا تريد . فاجاب بيلو من غير ان ينظر اليه : لا شيء فانني افتش عن الدكتور جيلبار . اما انت الا ترى الباب مفتوحاً . واشار باصبعه الى الباب يدعوه الى النجاة بنفسه . فقال دي لوناي : الدكتور جيلبار في نمرو ٣

ولكن لم يأت دي لوناي على هذه الكلمة حتى صاح صائح قائلاً — هذا حاكم الباستيل

فالتفت جميع الحاضرين ثم هجموا عليه هجمة واحدة وقبضوا عليه واخذوا يصيحون . هلموا به الى الاوتيل دي فيل . فما لبث دي لوناي المسكين ان غاب بين تلك الالوف كما تغيب ريشة تتلاعب بها الامواج الهائلة . فلما رأى بيلو انقضاض الناس عليه وخطفهم اياه خطف الذئاب النعاج وهم يتوعدون ويتهددون علم ان الحاكم في خطر فترك القوم وسار يطلب الغرفة نمرو ٣ التي علم انها سجن الدكتور جيلبار . فلم يجد مفتاحها مع الحارس فاستعار فأساً كبيرة واندفع يضرب بها باب الغرفة السنديانى لكسره

فدوت جدران ذلك المكان العميق لضرباته القوية واجتمع الناس ينتظرون النهاية .

فما لبث بيلوان فتح بالفاس ثغرة صغيرة فوضع عليها عينه ومد بصره الى داخل المكان

فابصر فيه رجلاً واقفاً بجذاء الباب وهو يحمل قطعة من حديد اخذها من سريره ليكسر بها راس كل من يدخل عليه اذ رابه كسر باب غرفته · فعرفه بيلو في الحال وصاح به : — دكتور · دكتور

فرفع الرجل راسه وصاح من يناديني · فقال بيلو انا صديقك بيلو

فدهش الرجل وصاح انت بيلو · فقال بيلو والجمع الذي كان وراءه · نعم نعم نحن نحن

فزاد استغراب الرجل وصاح بهم ومن انتم · فاجابوا نحن فاتحو الباستيل · اخرج فانك حرٌ مطلق

ثم عاد بيلو الى ضرب الباب بالفاس فحطمه وظهر الدكتور جيلبار

فاذا به شاب في نحو الخامسة والثلاثين ذو لحية مرتبة اسود الشعر اصفر اللون لا عن مرض ولكن صفرة طبيعية · وهو حاد النظر كأنَّ في عينيه سهاماً خارقة تنفذ الى اعماق القلوب تحتهما انف اقنى كأنه انف النسر مشرف على شفتين فيهما ابتسام الكبر والاحتقار تنكشفان عن صفي اسنان بيضاء كالثلج· وكان قد ظهر من سرعة تاثره انه عصبي المزاج شديد الانفعال

فخرج الدكتور جيلبار اليهم وصافح بيلو وبيتو والحاضرين ثم قال : لقد جاء اذاً اليوم الذي تنبأت عنه فالحمد للقوة الابدية التي تحفظ حرية الشعوب

ثم خرج الى الساحة مع بيلو وبيتو والناس يتبعونهم فلما راى نور السماء وهياج الشعب رفع بصره الحاد قائلاً : سلام ايتها الحرية · لقد شهدت نزولك في اميركا وها أناذا اشهد نزولك في هذه البلاد

ثم سال الدكتور بيلو عما جاء به الى باريز فقص عليه بيلو قصته التي اولها فقد الصندوقة وآخرها فتح الباستيل· فساله الدكتور بهدوء ورزانة· متى سُرقت الصندوقة من مزرعتك · فقال بيلو امس · فتامل الدكتور قليلاً ثم قال لا يخلو من مناسبة بين سرقة الصندوقة وسجني في الباستيل اريد الآن معرفة الشخص الذي طلب القاء القبض عليَّ وهذا امر نعرفه من صورة الامر الذي صدر بسجني فهلموا بنا الى غرفة الدفاتر والاوراق· قال هذا وسار بالحاضرين الى مركز الحاكم حيث كانت هذه الغرفة

الفصل الثامن عشر

(المثلث المائل)

ولما وصلوا الى غرفة الدفاتر وجدوا الشعب قد اخذ في احراق كل ما وجده فيها من الدفاتر والاوراق لان من عادة الشعوب التخريب من بعد الانتصار · ولكن الدكتور عثر بين الدفاتر التي لم تحرق على دفتر سنة ١٧٨٩ فقلبه على عجل حتى وقف على الامر الصادر بسجنه · فوجد ان هذا الامر صادر بطلب ناكار فاجفل الدكتور وصاح · صديقي ناكار يامر بسجني ؟

فلما سمع الشعب ان الدكتور يلقب ناكار صديقه زاد مقام الدكتور ارتفاعاً في اعينهم لان ناكار كان لديهم في اعلى منزلة

وبقي الدكتور مبهوتاً ثم قال · لا شك انه امر بالقاء القبض عليَّ من غير تروٍ فيجب ان اذهب لمقابلته

فساله بيلو مقابلة من ؟ فقال مقابلة ناكار فقال بيلو ناكار في بروكسل لان الملك قد عزله· فقال الدكتور اذاً اقابل ابنته · ولكني لا اعرف مكان اقامتها

فقال قائل من الجمع انها تسكن في قصر ابيها في سانت وين · فقال الدكتور ساذهب اذاً الى سانت وين · ثم التفت الى النار المضطرمة امام الغرفة تاكل الاوراق والدفاتر وقال للواقفين· ايها الاخوان العلم يحتاج في المستقبل الى هذه الاوراق والدفاتر التي تحرقونها · فاهدموا الباستيل ان شئتم حجراً على حجر اما هذه الاوراق والدفاتر فباسم العلم والتاريخ اسألكم ان لا تحرقوها

ففشا قوله هذا بين الحاضرين كلهم فصوبوه وتركوا حرق الدفاتر والاوراق ثم اخذوا بنقلها الى الاوتيل دي فيل

فالتفت الدكتور الى بيلو وقال له هلم بنا الى الخارج · ولكن الخروج كان في غاية الصعوبة فان الشعب كان الوفاً الوفاً في ساحة الباستيل يشاهد المسجونين الذين اخرجوا منه وعددهم سبعة غير الدكتور جيلبار · وهذه اسماؤهم: جان بشاد· برنارد لاروش· جان لاكوريج · انطوان بوجاد· دي هويت · الكونت دي سولاج · تافرنيه

اما الاربعة الاول فقد سُجنوا لاتهامهم بتزوير كمبيالة وقد مضت عليهم في الباستيل سنتان من غير محاكمة ولا استنطاق ولا سؤال عنهم او بحث في شانهم · مما يرجح ان

اتهامهم كان افتراءً وزوراً

واما الكونت دي سولاج فقد صدر الامر بسجنه في سجن فنسان سنة ١٧٨٢ بناءً على طلب ابيه . ثم نُقل من فنسان الى الباستيل فانقضت عليه ٥ سنوات وتوفي ابوه دون ان يفتكر احد به او يبحث في شانه . ولو لم يُفتح الباستيل لبقي فيه طول عمره

واما دي هويت فهو شيخ في الستين من العمر لا يذكر السبب الذي سُجن من اجله

واما تافرنيه فهو شيخ في الثمانين قضى في الباستيل ٣٠ سنة ولا يذكر الذنب الذي اوجب سجنه . ولما قيل له ان الشعب فتح الباستيل قال مستغرباً . ماذا يقول الآن لويس الخامس عشر ومدام دي بومبادور . ذلك لظنه ان لويس الخامس عشر لا يزال حياً

ولما خرج هولاء المسجونون الى الجموع وسمعوا ضوضاءهم ورأوا هياجهم وجدوا انفسهم في عالم غريب . فانهم اعتادوا السكوت والهدوء في سجنهم لا يسمعون فيه غير نسج العنكبوت او قرض الفأر في الظلام لذلك اثرت بهم الضوضاء شر تاثير وكادت تؤدي بحياة بعض منهم . وكانوا واقفين مبهوتين مدهوشين امام الشعب والشعب يتأهب لحملهم على الايدي والمسير بهم الى الاوتيل دي فيل . واذا بالدكتور جيلبار قد ظهر لهم فانقضوا عليه لحمله معهم . فحاول بيلو ان يدفعهم عنه فتغلبوا عليه واصعدوا الدكتور على مائدة ورفعوها فوق رؤوسهم وقد اثبتوا فيها رمحاً صغيراً ليتمسك الدكتور به . وحمل باقي الشعب باقي الاسرى واندفعوا يسيرون نحو الاوتيل دي فيل

وكانوا جماعات جماعات . منهم جماعتان في المقدمة تدفع الواحدة دي لوناي حاكم الباستيل والثانية الماجور دي لوسم ماجور الباستيل في وسط هياج عظيم . وجماعات وراءهم يحملون الاسرى . وكان الدكتور فوق المائدة على ايدي الجمع كخطيب في منبر عالٍ يشرف منه على مائة الف رجل كما يشرف الربان من سفينته على امواج الاوقيانوس المتلاطمة

وكان كلما تقدم الشعب نحو الاوتيل دي فيل ازداد الخطر على حياة دي لوناي . ولو لم يكن حوله رجال يحرسونه لقضى عليه الشعب في ساعة واحدة . اما حراسه فكانوا خمسة وهم : هولين وايلي وارنه وكولات وليبين . حفظ التاريخ اسماءهم جزاءً لهم على شهامتهم وحفظهم للمبادىء الانسانية . فانهم تعرضوا لكل انواع اللكم والضرب بل والموت ايضاً رغبة في انقاذ حياة الحاكم والماجور . وكانوا تارة يصيحون برفاقهم : اننا وعدناهم بانقاذ حياتهم . وطوراً : لا تسودوا بالقتل بياض عملنا في هذا النهار . ولكن الشعب — ذلك الوحش

المائل الذي لا يفهم شيئاً في ساعات غضبه — كان يزداد حول الفريستين ازدحاماً وهياجاً

ورأى الدكتور من مكانه الخطر قريباً من الرجلين فارسل بيلو و بيتو الى نجدتهما . فرأى بيلوان الشعب انما كان يعرف دي لوناي من كونه مكشوف الراس فتقدم واخذ قبعته ووضعها على راس دي لوناي

فالتفت دي لوناي فنظر بيلو فشكره وقال عبثاً تسعى بانقاذي فانهم سيقتلونني . فقال بيلو لا تخف فمتى وصلت الى الاوتيل دي فيل اصبحت آمناً . فقال دي لوناي بيأس ولكن من لنا بايصالنا الى الاوتيل دي فيل

وكان الماجور دي لوسم يلقى بين الجماهير من التهديد والوعيد واللكم والضرب ما يلقاه دي لوناي

فظلت تلك الالوف سائرة على هذا الوجه نحو الاوتيل دي فيل وبجانب حاكم الباستيل ٣ رجال يحمل احدهم الراية الفرنسوية والثاني مفاتيح الباستيل والثالث قانون الباستيل موضوعاً على رأس حربة

ولكنهم ما كادوا يشرفون على ساحة الاوتيل دى فيل حتى ابصروا هذه الساحة غاصة بالوف العامة المسلحين . ذلك انه طار في باريز خبر سقوط الباستيل واخذ الشعب حاكمه إسيرًا الى الاوتيل دي فيل فاجتمع العامة وتسلحوا ثم قصدوه طلباً للانتقام من ضعيف اصبح بلا سلاح . وهذا شأن الطبقة السفلى في كل امر عظيم . فانها تحجم عن العمل في ساعة الخطر احتفاظاً بارواحها فاذا انقضى الخطر ونزل النصر اقدمت بعد ذلك الاحجام فهي ان لم تشترك في القتال طلباً للنصر اشتركت في الانتقام

فلما وصلت جموع الباستيل الى ساحة الاوتيل دي فيل هجمت جماهير العامة تطلب دي لوناي والماجور دي لوسم . فعلم حراس دي لوناي ان الخطر الاعظم في تلك الهجمة . فصاح هولين برفاقه : شددوا عزمكم يا رفاق ودافعوا دفاعاً حسناً حفظاً لشرفنا

ولكن ما تصنع خمسة ايدٍ بازاء الوف من الايدي . وكانت الهجمة شديدة فسقط دي لوناي على الارض مع بيلو . ومن الغريب ان دي لوناي كان ساكتاً بشيء من الكبرياء الوقت كله . فلما سقط على الارض صاح بازدراء

— ويلكم ايها اللصوص اجهزوا عليّ واريحوني من هذا العذاب

فيالدعوة اجيبت كلمح البصر . فان ذلك الشعب المائل اندفع على دي لوناي قبل ان

ينهض عن الارض اندفاع افعى هائلة على عصفور صغير · فرأى الدكتور من منبره هذا المنظر فكاد يلقي بنفسه ليخلص تلك الفريسة فامسكه حاملوه واثبتوه على المائدة التي كان محمولاً عليها · فمد الدكتور بصره نحو دي لوناي ليرى ما جرى فلم يرَ له اثرًا ولكنه رأى فوق المكان الذي سقط فيه راساً على رمح تسيل منه الدماء

وكان هذا الراس راس دي لوناي المسكين (١)

فصاح الدكتور : ويل للقتلة الاشرار اني لأخجل ان يقال بان هولاء القتلة هم الذين خلصوني

فسمعه بيلو فقال : كلا ايها الدكتور · لم ينقذك هولاء القتلة لانهم لم يحاربوا معنا وانما الذين انقذوك انبل غرضاً واشرف مبدأ

وكان قتل دي لوناي تحت نوافذ المجلس البلدي ودي فلاسيل مع الاعضاء ينظرون الى الجموع من النافذة · فقدم حامل راس دي لوناي هذا الرأس من رأس دي فلاسيل فتراجع هذا خائفاً وعلى وجهه صفرة تحكي صفرة وجه دي لوناي

المثلث المائل



رأس دي لوناي على الرمح — راس دي فلاسيل على الرمح — راس دي لوسم على الرمح

(١) انظر تفسير ذلك في هذا الفصل

وهذه الرسوم الغريبة هي رسوم تاريخية ماخوذة بالفوتوغراف ساعة حدوث الحوادث المذكورة فوق وقد عثرنا عليها بعد بحث كثير

تخرج في هذا الحين من فوق جثة دي لوناي صوت هائل يتخلله الوعيد والتهديد. وكان هذا الصوت صوت الشعب. فانه وجد في ثياب دي لوناي الورقة التي كتبها اليه دي فلاسيل وهي :

« شد عزمك وادفع دفاعاً حسناً فانني اشغل الباريزيين بالوعود والحمائل وسيردك قبل « المساء نجدة من المسيو بزانفال « دي فلاسيل »

فلما اطلع الشعب على هذه الورقه علم منها ان دي فلاسيل كان يخدعه ويغشه فثار ثائر الناس وهبوا هبة رجل واحد لدخول المجلس البلدي حتى ان الذين يحملون الاسرى تركوهم وتبعوا رفاقهم. وبعد هنيهة خرجت مئات الشعب من ساحة المجلس وبينها رجل مكشوف الراس وهو دي فلاسيل. فاخذت تدفعه امامها وهي متجهة صوب نهر السين لتلقيه فيه. ولكن واحداً من الجمع لم يمهله بل عاجله باطلاق الرصاص عليه فصاح الدكتور من مكانه ووضع يد على عينيه بغضب واحتقار. ثم رفعها وفتح عينيه فوجد راساً ثانياً بازاء راس دي لوناي المحمول على الرمح

وكان ذلك الرأس رأس دي فلاسيل المسكين (انظر الرسم السابق)

ثم ما عتم الجمهور الذي كان يدفع الماجور دي لوسم ان انقض على هذا الرجل انقضاض الذئب على الحمل. وكان الماجور شديد الرأفة بالمسجونين محباً لراحتهم الا ان الشعب كان يجهل ذلك فساوى في غضبه بين الصالح والشرير. فضربه احدهم بفاس على راسه القاه على الارض. وبعد هنية ارتفع راس ثالث بازاء الراسين السابقين

وذلك الرأس كان رأس دي لوسم المسكين

فكان من هذه الرؤوس الثلاثة المرتفعة على ثلاثة رماح في ساحة الاوتيل دي فيل مثلث هائل تقشعر منه الابدان. فصاح الدكتور جيلبار : قبحاً لهذا المثلث من رمز اذا كان رمزاً الى الحرية. ثم اندفع يعدو تاركاً تلك الجموع ووراءه بيلو وبيتو

الفصل التاسع عشر

(ابن الدكتور جيلبار)

ولما وصل الدكتور الى شارع بلانش ميبراي وجد مركبة فصعد اليها مع بيلو وبيتو وامر السائق بالمسير الى مدرسة لويس الكبير ليشاهد ولده

فما زالت المركبة سائرة بين جماهير الناس الذين كانوا يتحادثون بامر فتح الباستيل وقتل حاكمه وهم في جدال وهياج حتى وصلت الى باب هذه المدرسة

فدخل الدكتور و بيلو اما بيتو فبقي في المركبة

وكان سباستيين لا يزال في مستشفى المدرسة وقد عرف الدكتور ذلك مما قصه عليه بيلو. فلما رأى سباستيين اباه ابرقت عيناه وانطرح على عنقه يضمه اليه . ولكن سروره كان هادئاً لطيفاً كانه سرور شاب او كهل لا سرور فتى صغير

اما الدكتور فجعل ينظر الى ولده نظرات حنو مبهمة. ولو شهد هذا المشهد رجل اشد نباهة وفراسة من بيلو الذي كان واقفاً بازائهما لعرف من هذه النظرات ان بين هذا الوالد والولد سرًّا عميقاً

وبعد مصافحة سباستيين اباه سلم على بيلو وشكر له انجاز وعده من انقاذ ابيه فضحك بيلو وقال له لا تحسب ان ذلك كان امرًا هيناً . فنظر اليه الدكتور مبتسماً ثم قال لسباستيين

— اتيت الآن لاراك بسلام ياسباستيين وابلغك اني خرجت من الباستيل ولكني مضطر الى مفارقة باريز على عجل

فقال الولد ما هذه السرعة يا ابتِ هلا اقمت عندنا بضعة ايام . فقال الدكتور اسمع لاطلعك على السبب . اودعت صديقنا بيلو منذ سنوات صندوقة في غاية الاهمية لدي فسرقت هذه الصندوقة من مزرعته بعد القاء القبض عليَّ فغرضي الآن البحث عن سارقها وعن الذي طلب سجني وفي ظني ان كلاهما واحد

فسكت سباستيين اما الدكتور فاردف بقوله . على انني لا اغيب عنك وقتاً طويلاً فوصيتي اليك ان تجد وتجتهد ياسباستيين

وكان ناظر المدرسة واقفاً يسمع كلام الوالد والولد فلما انى الدكتور على هذا الكلام طلب اليه الناظر ان يحادثه على انفراد . فمشى الدكتور معه الى زاوية في ذلك المكان ولكن سباستيين قبل ابتعاد ابيه طلب ان يرى بيتو رفيقه في المدرسة وفي الرضاع فخرج بيلو ليأتيه به

ولما انفرد ناظر المدرسة بالدكتور قال له اهنئك ياسيدي بهذا الولد فانه سيكون فخرًا لمدرستنا . ولا ريب عندي انه سينال كل جوائز المدرسة فان اجتهاده غريب ونفسه على صغر سنه كبيرة كانها نفس رجل تسكن جسم فتى صغير . اقول ذلك تمهيدًا لامر اطلبه

منك وهو ان لا تسأل ولدك الزيادة في الجد والاجتهاد فحسبه ما يجد ويجتهد

فقال الدكتور وماذا تعني بذلك يا سيدي · فاجاب الناظر اعني ان نفس هذا الولد تكاد تنشق من كثرة الدرس والعمل فانصحه ان يكون معتدلاً في العمل بدلاً من نصحه ان يزداد جدّاً واجتهاداً · ليتك تراه وهو وراء مائدة الكتابة قاموسه في يده وقلمه بين اصابعه ودفتره امامه · فان افكاره تغوص وهو في هذه الحالة في بحر البلاغة والفصاحة فتستخرج اسمى المعاني وافصح الالفاظ · ويبقى غائصاً في ذلك التيار كانه لا يشعر بشيء مما حوله

فظهر الاهتمام في وجه الدكتور لهذا الكلام فقال· وهل يطول تامله · فقال الناظر يطول حتى ننبهه الى نفسه · ثم نظر الناظر الى سباستيين وصاح بصوت خافت · انظره ياسيدى فانه حتى في مرضه يغوص في دروسه وتاملاته

فالتفت الدكتور الى ابنه فوجده واقفاً كالصنم لا حراك به وهو باهت بهتة اجرت الدم بارداً في عروق الدكتور· فسال بصوت خفيف وهل يبهت كثيراً هكذا · فاجاب الناظر كلما كان وحده · فسال الدكتور وكيف تنبهونه · قال نقترب منه ونهزه فيعود الى نفسه

فظهر الكدر والاستياء في وجه جيلبار فقال · ذلك يضرُّ به ضرراً بليغاً بل يجب ان تخاطبوه بصوت ضعيف اولاً حتى يعود الى رشده · انظر انظر الآن ماذا سيحل به

وكان بيلو في ذلك الوقت عائداً ببيتو فلما راى بيتو رفيقه سباستيين هجم عليه فرحاً جذلاً واخذه بيده قائلاً : اشكر لطفك ياسباستيين لانك سالت عني

ولكن ما مس بيتو ذراع الولد حتى اجفل سباستيين وامتقع وجهه واصطكت ركبتاه وكاد يسقط على الارض من الدهشة والخوف · ولكنه مع دهشته كان يبتسم لبيتو

فقال الدكتور للناظر ارايت ما يكون لتنبيهه على حين بغتة من التاثير المضر

ثم استاذن جيلبار الناظر واتجه صوب سباستيين وساله ان يتبعه الى حديقة المدرسة ليحادثه على انفراد · فسار الولد وراءه

فلما بلغا الحديقة جلسا على كرسيين تحت ظل شجرة فابتدر جيلبار ولده بالسؤال قائلاً · رايتك الآن مبهوتاً ياسباستيين فلماذا انت كئيب

فابتسم الولد وقال لا شيء يا ابت · قال بل لا بدَّ من شيء يوجب كآبتك اصدقني الخبر · قال لاشيء · فقال جيلبار يكدرني سكوتك يابني فاني ارى الكآبة ظاهرة في

جبينك وعينيك

فحنى الولد راسه وقال ليس ذلك بكآبة يا ابت ولكنه امر عرضي. فقال قل ما هذا الامر قال هو انني لا اجد سرورًا في المعيشة . قال وماذا تعني بذلك . قال اعني انني لا اجد سرورًا في الالعاب التي يلعبها الاولاد الذين بسني . فقال الاب وكيف تقضي اوقاتك . قال اقضيها بالسكوت والوحدة والتامل

فقال جيلبار مشغول الفكر لهذا الكلام . احذر ياسباستيين من هذه الحالة فهي تدل على واحد من اثنين : اما الكبرياء واما المرض . فان ولدًا مثلك في الثانية عشرة من العمر لا ينبغي ان يكون بهذا الهدوء الذي اجده فيك بل ينبغي ان يثب ويلعب ويذوق كل مسرات الصبوة . والا فهو متكبر او مريض فايهما انت

فقال سباستيين لا هذا ولا ذاك . فقال ابوه بشيء من الاستياء لماذا لا تصدقني ياسباستيين

فاطرق الفتى متاملاً ثم قال . اقول لك الحق يا ابت اني ارتاح الى ذلك الهدوء والتامل . قال ولماذا هذا الارتياح . قال لاني ارى رؤيا غريبة تروقني . قال الدكتور باهتمام . وما هذه الرؤيا . فقال الولد

اسمع يا ابت فهذه هي المرة الاولى التي اقص عليك فيها هذا الحديث . انني اكون كباقي الناس مادمت مع اصحابي ورفاقي . ولكني اذا انفردت عنهم واصبحت وحدي شعرت كاني انتقلت من هذا العالم الى عالم آخر . فيطيب لي التامل في هذا العالم ولا اغوص في بحار الافكار حتى اسمع حفيف ثوب بحذائي فالتفت فارى شيئًا كالدخان تكاثف امام عيني ثم يزداد هذا الدخان تكاثفًا حتى يتجسم وياخذ بالسير امامي . وحينئذٍ ارى في وسطه امراة طويلة القوام تنظر اليّ . فتتحرك شجوني واحس بيد قوية تدفعني الى هذه المرأة بالرغم عني فاتبعها وهي تركض امامي . ولا ازال كذلك حتى اشعر بحفيف ثوبها مرة اخرى فيتبدد حينئذٍ ذلك الدخان وتتوارى عن نظري فيخور عزمي واسقط في المكان الذي توارت فيه عني

وكان الولد يتكلم وابوه يزداد دهشة واهتمامًا بكلامه فلما اتى الولد على آخر حديثه قال جيلبار . وهل ترى هذه الرؤيا منذ زمن طويل . فقال كنت اراها منذ صغري لما كنت في فيلله كوتريه وكانت تلك المراة تركض امامي في الاحراش فاتبعها حتى تتوارى عن نظري فاسقط على الارض وكثيرًا ما وجدني بيتو ممددًا هنالك وقد مضى عليّ

الليل كله

فقال هل ترى هذه الرؤيا في المدرسة · قال اراها كلما انفردت عن رفاقي وطابت لي الوحدة في مكان هادىء متسع كهذه الحديقة · قال وهل ترى وجه تلك المراة التي تظهر لك · قال اراه كما ارى وجهك يا ابت · قال وهل تحاول امساكها · قال كلما رايتها هجمت عليها بشوق وانا امدُّ اليها يديَّ فتهرب مني · قال وما هي هيئتها · قال كهيئة الملكات يا ابت · قال وماذا تشعر كلما رايتها · فقال الولد اشعر بارتياح شديد وقلبي يقول لي انها امي

فما لفظ الولد كلمة « امي » حتى وثب جيلبار عن كرسيه كان يداً اوقفته بالرغم عنه وقال · امك ؟ وكيف ظننت ذلك · فقال الولد كنت اظن ذلك اما الآن فقد ذهب هذا الظن · فجلس جيلبار وقال ما الذي ذهب به · فقال الولد ذهب به امر اغرب من الامر الذي ذكرته لك يا ابت · قال الدكتور وما هو · فقال الولد :

اخذنا ناظرُ المدرسة في احد الاعياد الى حرش ساتوري قرب فرسايل فانفردت حسب عادتي بين تلك الاشجار واخذت اغوص في تاملاتي الحلوة · فقطع جيلبار كلامه قائلاً فظهرت لك الرؤيا حينئذٍ · فقال الولد نعم ظهرت ولكن هذه المرة كانت حقيقة لا وهماً · ذلك اني رايت امام عيني على الطريق تلك المراة التي كنت اراها في التاملات والرؤى جالسة بعظمة كعظمات الملوك في مركبة فاخرة تجرها اربعة من جياد الخيل وهي سائرة نحو فرسايل · فكدت اختنق في تلك الساعة من ياسي وكدري اذ علمت حينئذٍ ان الخيال الذي كنت اراه في الوهم موجود في الحقيقة وهو غير امي · لان امي كما قلت لي ماتت وانا طفل صغير

وما انتهى الولد من هذا الكلام حتى اصبح وجه جيلبار ممتقعاً لشدة تاثره فنظر اليه سباستيين وقال · ما بك يا ابت ليتني لم اقص قصتي عليك · فقال جيلبار متاثراً بل قص عليَّ كل ما تراه من هذا القبيل يابني لعلنا نشفيك من هذا المرض الدماغي · فهز الولد راسه وقال · كلا لا اريد ان تشفيني منه يا ابت لانه اصبح لذتي الوحيدة · فانني تعوَّدت على هذه الرؤيا حتى انك اذا عدت الآن الى اميركا وغبتَ عني سنوات فانني احتمل فراقك لانني لست وحدي بل ذلك الخيال معي يسليني · ولكني اسالك يا ابت سؤالاً وهو هل كانت امي جميلة

فاجاب جيلبار متنهداً نعم كانت بارعة الجمال

فقال الولد وهل كانت تحبك كثيراً

فلم يتمالك هنا الدكتور ان وثب من كرسيه بتاثر شديد فلثم ولده على عجل وصاح به : سباستيين سباستيين لا تسالني عن امك بعد الآن

ثم تركه وسار مسرعاً نحو بيلو و بيتو فاخذهما وركبوا المركبة · اما سباستيين فبقي في مكانه غائصاً في تصوراته وتاملاته حتى جاء ناظر المدرسة فاعاده الى المستشفى

الفصل العشرون

(مدام دي ستايل)

لما جلس جيلبار في المركبة بازاء بيلو وبيتو كان التأثر الشديد ظاهراً في وجهه ولكن هذا الرجل اعطي سلطاناً عظيماً على تاثراته · فوضع وجهه المضطرب بين يديه واطرق قليلاً ثم رفع راسه فظهر الهدوء التام في وجهه بعد ذلك التاثر الشديد · فقال للسائق بسكينة · خذنا الى اقرب مخزن من مخازن الخياطين فانني اريد تغيير ثيابي · ثم التفت لبيلو وسأله امعك نقود · فمد بيلو يده الى جيبه واخرج قبضة من الذهب فيها عشرون او ثلاثون قطعة فاخذ منها جيلبار عشراً فقط

و بعد ان ابتاع جيلبار ثو باً اسود اللون على زي الثياب التي كان يلبسها اعضاء المجمع الوطني امر السائق بالمسير بهم الى قصر سانت وين حيث تقيم مدام دي ستايل ابنة المسيو نا كار ولما وصل الى هذا القصر استقبله خادم وساله ماذا يطلب · فاجابه جيلبار انني اطلب مقابلة المسيو نا كار فاجاب الخادم انه سافر الى بروكسل · فقال جيلبار اطلب مقابلة البارونة زوجته · قال قد سافرت معه · قال اذاً اطلب مقابلة مدام دي ستايل ابنته فقال مدام دي ستايل هنا ولكنها تتنزه في الحديقة ولدينا منها امر ان لا نكدر صفوها اذا كانت تتنزه فمد حينئذٍ جيلبار يده الى جيبه واخرج منها ذهباً ثم دسه في يد الخادم قائلاً · ارجوك ان تقبل هذا وتبلغها انني صديق اطلب مقابلة ابيها او مقابلتها · فادخله الخادم ثم سار وابلغ سيدته قول جيلبار فتركت مدام دي ستايل (١) نزهتها واتت لمشاهدة زائرها



(١) مدام دي ستايل — هي ابنة البارون نا كار الكاتبة الفرنسوية الشهيرة التي اقلقت بال نابوليون الاول بانتقاداتها الشديدة الصحيحة حتى اضطر الى نفيها من البلاد الفرنسوية · على ان نفيها كان خيراً لعالم الادب والسياسة فانها كتبت في منفاها وهي في المانيا كتاباً مهماً عنوانه « المانيا » مازال الكتاب الى عصرنا هذا يعتبرونه احسن ما كتب عن المانيا على

وكانت مدام دي ستايل لم تكتب بعد روايتها « كورين » ولا كتابها الشهير «المانيا» الا ان شمس شهرتها كانت قد بدأت بالطلوع في عالم الادب · فلما رآها جيلبار مقبلة عليه اخذ يفحص هيئتها فوجد لوائح النباهة تلوح في وجهها ولكن راسها كان اشبه براس رجل منه براس امرأة ولم يكن في سحنتها شيء من الظرف والكياسة

وكانت تخطو نحوه وفي يدها غصن من الرمان تلهو با كل ما فيه من الزهر (الجلنـار)

فلما وصلت اليه سلم عليها جيلبار وسلمت عليه فسالها عن ابيها البارون نا كار · فاجابت انه سافر الى بروكسل منذ ثلاثة ايام فقال جيلبار · ولكني ارى سفره في غير محله حتى انني لاشك فيه · قالت ولماذا تشك في سفره · قال لانه ليس من حسن الراي ان يبتعد عن باريز في وقت قد يحتاج فيه الملك اليه ويرى نفسه مضطرًا الى ارجاعه الى منصبه قالت ولكنه سافر ياسيدي فقال جيلبار وما العمل بما اريد ابلاغه اياه فانه من الاهمية باعظم مكان

فرفعت مدام دي ستايل راسهـا وقالت · ما هذا الامر المهم ياسيدي الا تستطيع اطلاعي عليه · فقال كلا ياسيدتي لانه متعلق بالمسيو نا كار وحده وهو في اقصى درجات الاهمية · فقالت مدام دي ستايل شغلت بالي ياسيدي بهذا الكلام · واؤمل انك تطلعني على هذا الامر ليطمئن بالي · ارجوك ان تتبعني لنتحادث في القاعة بهذا الشان

ثم مشت امامه فسار جيلبار في اثرها · فادخلته الى غرفتها وهي غرفة اشبه بغرف الرجال منها بغرف النساء · ثم جلست وجلس جيلبار · فقالت له ارجوك ان تشرح لي ياسيدي هذ الامر ليطمئن بالي · فقال جيلبار · لا اقول لك ياسيدتي الا كلمة واحدة وهي

الاطلاق وهذا الكتاب احسن كتب مدام دي ستايل ولها غيره كتاب « دلفين » ورواية فلسفية فنية اسمها « كورين » نقلتها الى اللغة العربية منذ بضع سنوات حضرة الدكتورة الفاضلة السيدة انيسة صيبعة الطرابلسية باختصار كثير بقي معه كثير من اغراض المؤلفة اهمها مشهد ختام الرواية وهو من اشد المشاهد تاثيرًا وقبل وقوفنا على اصل هذه الرواية الفرنسوي طالعنا الترجمة العربية تحت اشجار الارز في جبال لبنان والهواء عليل بليل والمناظر الطبيعية تذكر القارىء مناظر ايطاليا التي تصفها مدام دي ستايل في هذه الرواية فوجدنا لها تاثيرًا كان يجري دموعنا ودموع صديق بازائنا كنا نقراؤها معه

وكانت ولادة مدام دي ستايل في سنة ١٧٦٦ ووفاتها في سنة ١٨١٧

انه لو كان المسيو ناكار والدك يسمعني الآن وعرف انني انا الرجل الذي كتبت يوماً كتاب « حالة الافكار والتقدم العام » فانني اؤكد لك انه يتقدم مسرعاً اليّ ويقول لي — تكلم فاني مصغ اليك ايها الدكتور جيلبار

ولكن ما اتم جيلبار كلامه حتى انفتح بغتة باب في جدار هذه الغرفة وظهر فيه البارون ناكار باسماً ثم اقترب من جيلبار وقال — ها انذا تكلم فاني مصغ اليك ايها الدكتور جيلبار

ثم تناول البارون كرسياً وجلس بازاء ضيفه · فنهضت حينئذٍ مدام دي ستايل فودعت جيلبار بابتسام وخرجت من حيث دخل البارون · فقال جيلبار · سمعت الآن ياسيدي سراً يطلعك على حقيقة افكاري · فاني انا الذي ارسلت الى الملك من اميركا التقارير التي وصلته عن جميع المسائل الداخلية · فقال ناكار نعم وقد اطلعني الملك على بعضها · قال واظنك تذكر ان ما تنبأت به في هذه التقارير قد حدث كله · قال وبماذا تنبأت · قال جيلبار النبوءة الاولى قولي ان الملك سيضطر الى عزلك بازاء الحاح مقربيه · فابتسم ناكار وقال والثانية · فقال جيلبار اما نبوءتي الثانية فهي فتح الباستيل · فقال ناكار وهل تنبأت بفتح الباستيل · قال نعم لان الباستيل لم يعد سجن الملكية ولكن رمزاً الى ظلمها واستبدادها · فكان لا بد من ان تهدمه الحرية بفاسها القوية

فنظر اليه البارون باسماً وقال الا تخشى عقبى هذا الكلام · فقال جيلبار ومن اي شيء اخشى اذا كنت الآن خارجاً من الباستيل

فدهش ناكار وقال انت كنت في الباستيل : قال نعم · قال ومن وضعك فيه · فقال جيلبار هذا هو الامر الذي جئت اسالك عنه · انظر ياسيدي توقيعك على الامر بسجني · ثم اخرج من جيبه الامر الذي اخذه من سجل الباستيل واراه لناكار · فقال ناكار لا اذكر انني امرت بسجنك ولكني اذكر انني قبل تركي الوزارة قدموا اليّ بعض هذه الاوامر وهي بيضاء لا يوجد عليها اسماء من يطلب القبض عليهم فوقعت عليها جرياً على العادة · ولا اكتمك انني كنت اكره التوقيع على هذه الاوامر واقلل من اصدارها ما استطعت على اني بالرغم عن هذا التقليل ما كنت اوقع في السنة على اقل من اربعة الاف امر ··

فقال جيلبار فما العمل اذاً لمعرفة الذي طلب القاء القبض عليّ · فقال ناكار انتظر لافحص اوراقي فانني اصطحبتها كلها لكي استطيع تبرءة نفسي عند الحاجة

ثم نهض الى درج فاخذ منه اوراقاً ولبث يفحصها حتى عثر على ورقة فادناها من جيلبار وقال له اقرأ هذه الورقة ففيها طلب سجنك وعليها توقيع « الكونتس دي شارني »

فقال جيلبار وهو يتامل الورقة لا اعرف سيدة بهذا الاسم · قال ناكار والورقة اتت عن يد الملكة لان الكونتس دي شارني اعز عزيزاتها واقرب المقربات اليها لذلك كتبت الملكة على هذه الورقة سطرا بخطها وهو : « فلتنفذ ارادة الكونتس دي شارني في هذا الشان على عجل »

فعض جيلبار شفتيه ولبث يتساءل عن هذا الامر المبهم · ثم هزّ راسه وقال كل البلاء من الملكة

فضحك ناكار وقال انك تعرف الملكة اذاً · قال اعرف انها عدوة الملك والملكية ولولاها لما وقع الملك في ما هو واقع فيه الآن · فلنترك الآن امر سجني فانني ساعرف كل شيء ولننظر في امرك يا حضرة البارون

فقال واي امر تعني · قال امر ارجاعك الى الوزارة فان الملك لا بد ان يفكر في ذلك الآن قال ناكار وان رجعتُ الى الوزارة؟ قال اذا رجعت اليها فانك تفقد شهرتك لدى الشعب بما يضعه الملك والملكة من العثرات في طريقك قال وماذا ترى واجباً ان اصنع قال اسمع لاطلعك على افكاري وقبل ذلك اسالك أأنت تعتقد بوجود الجمعيات السرية في فرنسا قال نعم يوجد منها قال وهل انت مشترك في بعضها قال كلا فقال جيلبار :

اما انا فاني مشترك فيها كلها وعلى الخصوص بالجمعية الماسونية نحن ٣ ملايين اخ قد اقمنا الجمهورية الاميركية وفي عزمنا الآن ان نقيم الجمهورية الفرنسوية ومتى انتهينا من هذا سعينا لاقامة جمهورية اوربية تتالف من جميع الامم الاوربية كما تالفت الجمهورية الاميركية من الولايات الاميركية وهذه الجمعية كلية القدرة ايها البارون فان اعضاءها بين جميع طبقات الامم بين الملوك والصعاليك والكبار والصغار هي قوة سرية هائلة لا تقف صعوبة في طريقها وقد اتمت عملها في اميركا بنجاح الآن تجرب عملها في هذه البلاد

فقال ناكار ولكنني لا اكره مبادىء الجمهورية الاميركية بل انني من انصار هذه المبادىء فليدخلوها الينا

قال جيلبار ولكن شتان بين جمهوريتنا وجمهورية الولايات المتحدة فان الارض في اميركا بكر عذراء لا تقاليد فيها تحول دون الحرية ولا بغض ولا انقسام بل هُنالك شعب واحد عظيم مجتمع تحت راية الاخاء والحرية واما ارضنا فهي ارض قديمة مملوءة بالخراب وهمُّ اهلها الشقاق فكم من بناء يجب ان يُهدم لاقامة بناء الجمهورية مكانه كنت جمهورياً في اميركا اما في هذه البلاد فانا ملكي لان الجمهوريين في هذه البلاد لا يعرفون

ماذا يصنعون ولا الى اين يسيرون فقال نا كار واين الآن الجمهوريون عندنا فقال جيلبار في المجمع الوطني حزب ساكت يراقب الحوادث الآن ويعد اعمالاً عظيمة وهذا الحزب هو الحزب الجمهورى المخيف الذي سينشر الرعب والهول في هذه البلاد لذلك جئت اليك ايها البارون قال وما غرضك قال غرضي خدمة بلادي وتاخير نزول الزوبعة ان لم يكن في استطاعتنا منع نزولها قال وماذا تقترح عليَّ قال اقترح عليك امرًا بسيطًا وهو ان تكتب بيدك كتابًا الى الملك توصيه بي قال مثلك لا يحتاج الى كتاب توصية قال لا غنى لي عن كتاب منك وتساله في هذا الكتاب ان يثق بي كطبيب ومشير فاكون مستشاره وطبيبه معًا ومتى اصبحت قرب الملك سهل علينا مقاومة نفوذ الملكة فنخدم بذلك بلادنا من جهة واستطيع من جهة اخرى متى رجعتَ الى منصبك ان انبهك الى اليوم الذي يجب فيه ان تستقيل من الوزارة حتى اذا هبت الزوبعة وسقط البناء لم يسقط عليك بل كنتَ سالمًا معافى

فاطرق نا كار ثم مد يده الى جيلبار قائلاً رضيت بشروطك ياسيدى ومثلك اهل لكل ثقة ثم نهض الى مائدة وكتب عليها للملك الكتاب الآتي

مولاي — لا بد ان تكون جلالتكم محتاجة في الاحوال الحاضرة الى رجل امين تباحثونه بحرية في كل ما يهم جلالتكم من الشؤون السياسية · لذلك رايت ان اقدم اليكم الدكتور جيلبار حامل هذا الكتاب فانه الرجل الذي تحتاجون اليه · وهذه التقدمة آخر خدمة نافعة اقدمها لجلالتكم · ويسركم بالخصوص ان تعرفوا الدكتور متى علمتم انه هو كاتب التقارير العديدة التي ارسلت اليكم من اميركا وكنتم تعجبون بها كل الاعجاب وموضوعها : « ادارة وسياسة »

على اعتاب جلالتكم

البارون نا كار

ولما فرغ نا كار من كتابة هذا الكتاب القاه الى جيلبار فنهض جيلبار مودعًا فقال له نا كار ولكن لا تنس ان تقول للملك اذا سالك عني انني في بروكسل لا في باريز فوعده جيلبار بذلك ثم ودعه وخرج · وفي خروجه لقي مدام دي ستايل في طريقه ولكنها كانت تحمل في هذه المرة كتابًا صغيرًا بدلاً من غصن الرمان · فلما دنا جيلبار منها ادنت عنوان الكتاب منه فقرأ جيلبار على ظهر الكتاب هذه الكلمات « استقلال الانسان وحرية الشعوب » وهو عنوان الكراس الذي نشره الدكتور فودعها جيلبار مبتسماً وخرج وهو يقول : ساعرف من قصر الملك اولئك الذين طلبوا سجني وسرقوا صندوقتي

الفصل الواحد والعشرون

(الملك لويس السادس عشر)

ولما خرج الدكتور جيلبار من منزل البارون ناكار كانت الساعة التاسعة فكره ان يؤجل زيارته للملك الى الغد لان مزاجه العصبي الشديد التأثر والحركة كان من اكره الامور اليه ان يؤجل شغلاً يكون لديه. فترك بيلو وبيتو في فندق صغير اعتاد بيلو النزول فيه كلما قدم الى باريز ثم استأجر مركبة وسار بها الى فرساليا (١) لمقابلة الملك

فوصلها في منتصف الساعة الحادية عشرة. ولو كان قد جاءها في غير هذا اليوم لوجد اهلها في تلك الساعة كلهم نياماً اما في ذلك اليوم فكانوا قائمين قاعدين للامر العظيم الذي حدث في باريز. وكان اكثرهم من حزب الملكية ينكر على الباريزيين ما صنعوه

ذلك ان فرساليا بلدة ملكية قلباً وقالباً فان ملوك فرنسا انشأوها وغطوها بالمرمر والذهب فكان عليها مسحة ملكية دائمة. حتى الآن وتلك العظمة قد زالت. والذهب قد ذهب. والعشب قد نبت بين بلاط المرمر وجنائنها التي شهدت عظمة الملوك السابقين يسود فيها هدوء المقابر والاموات — حتى الآن تكاد تكون فرساليا ملكية الظواهر كأن تلك المسحة الملكية التي مسحت بها ما زالت عليها

وكان السكان افواجاً افواجاً في الشوارع يتحادثون في سقوط الباستيل ويتساءلون ماذا

---

(١) فرساليا — مدينة الى جنوب باريز الغربي على مسافة ١٨ كيلومترًا منها حسنها تحسيناً عظيماً لويس الرابع عشر في سنة ١٦٦١ واتخذها هو ومن جاء بعده من الملوك كلويس الخامس عشر والسادس عشر والثامن عشر وشارل العاشر مقاماً لهم. وقد حدثت في هذه المدينة اول اعمال الثورة المهمة مثل يمين لعبة البوم (صفحة ٤٦) واجتماع مجالس الولايات وقد نهبها البروسيون في سنة ١٨١٥ وجعلت في سنة ١٨٧٠ المعسكر العام للجيش الالماني الذي فتح باريز وفي احد قصورها الملكية توج الملك غليوم الاول البروسي امبراطورًا لالمانيا وعقدت الوحدة الالمانية وهي مركز مديرية يتبعها ١١٥ مركزًا وعدد سكانها ٢٣٢ الف نفس

وفي فرساليا تجتمع دار الندوة الفرنسوية لانتخاب رئيس الجمهورية هرباً من شدة الزحام في باريز

عساه ان يصنع الملك بعد هذه الاهانة الكبرى التي اصابه الشعب بها

وكان منهم من يقول ان ميرابو في جوابه الى المسيو دروز بريزه (١) قد لطم الملكية في وجهها · اما الشعب باسقاطه الباستيل فانه طعنها في قلبها

وكانوا احزاباً ففريق منهم يقول ان حل هذه المشكلة سهل جداً على الملك · وطريقة ذلك ان يستصدر الملك قراراً بسيطاً من المجمع الوطني مآله : « ان التمرد على الحكومة جناية » وبموجب هذا القرار يسوق الملك ٣٠ الف جندي و٢٠ مدفعاً على الباريزيين فيحني بها رؤوسهم الشامخة ويرغم انوفهم

ولكن كان بازاء هذا الفريق فريق ثان يبث في صدور الناس عواطف الاستياء والكدر من حالة الحكومة ويحثهم على الثورة لاكمال ما بدأ به الباريزيون · وفريق ثالث كان بين رجاله اناس تدل ايديهم البيضاء ووجوههم المشرقة اللامعة على انهم ليسوا من الطبقة التي تدل عليها ملابسهم العامية · وكان هذا الفريق يحرض الشعب سراً على ترك المجمع الوطني والملك لتمليك الدوق دورليان

فوقف الدكتور جيلبار امام كل فريق من هؤلاء الجماهير فسمع شيئاً من اقوالهم واطلع على حركة افكارهم ثم قصد قصر الملك

وقبل دخوله الى الداخل اعترضه حارس فاراه الدكتور ختم ناكار والكتاب الذي معه · فتركه الحارس يمر مع شدة المراقبة على الداخلين الى القصر والخارجين منه في ذلك الوقت وتطويق القصر والطرق المؤدية اليه بصفوف الجند كأن الملك في حرب لا في سلم ولكن علامَ هذا الجند كله · وممن كانوا يحرسون الملك به

وقد ترك الحارس الدكتور جيلبار يمرّ لانه علم من ختم المسيو ناكار ان في المسالة امراً خطيراً · ولذلك اخذ الحارس الدكتور بنفسه الى غرفة الملك · ولكن هذه الغرفة كانت خالية

ذلك ان الملك كان يستقبل في القاعة الكبرى وفداً من الحرس الوطني اتى يطلب منه ثلاثة امور : الاول صرف الجنود لان منظرها يثير افكار الباريزيين والثاني تأليف حرس جديد والثالث عودة الملك الى باريز

وبعد الحاحهم الشديد رضي الملك بان يتوارى الجنود عن الانظار توارياً فقط ووعد

---

(١) انظر الصفحة ٤٧ السطر ٢

بتعيين بعض كبار الباريزيين لبعض الوظائف العسكرية . ولكنه رفض العودة الى باريز قبل ان يخلد الباريزيون الى الطاعة والسكينة

فحاول الوفد تغيير عزمه فلم يستطع فعادوا من حيث اتوا وعاد الملك الى غرفته فوجد الدكتور جيلبار بانتظاره والحارس بازائه

فدخل الملك بتثاقل وكدر واذ ابصرهما قال من غير ان يلتفت اليهما — ماذا يطلبون منى

فانحنى الحارس وقدم له كتاب ناكار والدكتور جيلبار واقف يتأمل بهدوء وثبات جاش هيئة الملك لويس السادس عشر فابصر الدكتور امامه جسماً ضخماً (١) رخواً قصيراً بلا عظمة ولانشاط يحمل شيخوخة معجلة تلت شباباً ضعيفاً ضئيلاً في داخله شيء قليل من النباهة ولا شيء مما يجعل الملك ملكاً غير الارث الطبيعي . فعلم الدكتور جيلبار ان هذا المنظر الذي كان امامه رمز مخيف الى الخراب والعجز والانحلال الآتي

وبعد تلاوة الملك كتاب ناكار بصبر فارغ التفت الى الدكتور وقال له انت الدكتور جيلبار فانحنى الدكتور واجاب — نعم ياذا الجلال . فساله الملك وكم عمرك فاجاب الدكتور عمري ٣٢ سنة ولكن الدرس والمصائب قد ضاعفتها فاعتبرني يامولاي شيخاً لا شاباً

فساله الملك وهل انت الذي ارسلت اليّ التقارير التي ذكرها ناكار في كتابه فاجاب الدكتور نعم فقال الملك ولماذا لم تأتِ قبل اليوم لمكافأتك عليها فانني قداعلنت مراراً في الجرائد الرسمية رغبتي في معرفة صاحب تلك التقارير ومكافأته

فقال الدكتور نعم يامولاي فانني اذكر انني طلبت من جلالتكم منذ خمس سنوات ان تضعوا مصباحاً في نافذة قصركم في ليلة معينة اذا كنتم قرأتم تقاريري



(١) بما انه لايوجد في هذه الصفحات رجال عظام لنشر رسومهم بل كل الكلام مقصور على الملك في هذا الفصل وعلى الملكة في الفصول التالية الى آخر الجزء الاول فقد راينا ان ننشر رسمي الملك والملكة مرة ثانية تبياناً لما يوجد فيهما من المناسبة بين الملامح التي رسمها قلم الكاتب فوق والملامح التي رسمها قلم الرسام في هذين الرسمين



فقال الملك وانك لتعلم ان هذا المصباح قد وضع في النافذة في الوقت المعين فقال الدكتور نعم اعلم ذلك ولم يكتفِ بوضعه بل اصعد وانزل في النافذة ثلاث مرات وفي اليوم الثاني وُجدان هذان السطران في الجريدة الرسمية

« ان الذي رفع المصباح في النافذة وانزله ٣ مرات يطلب الذي رآه ان يحضر اليه ليحسن جزاءه »

فقال الملك نعم اذكر انني نشرت ذلك لكي اعرف صاحب تلك التقارير . وقد انتظرتك طويلاً اما الآن فانك قد اتيتني حين يئست من مجيئك فتركت انتظارك ولكني اسألك ايضاً لماذا لم تاتِ قبل هذا اليوم

فقال جيلبار تركت ذلك الى حين حاجة جلالتكم اليّ فقال الملك وهل تظنني الآن في حاجة الى شيء

فاجاب الدكتور انني استاذن جلالتكم بالكلام بكل حرية . واذا اذنتم لي بذلك قلت ان الخطر الذي تنبأتُ به في تلك التقارير قد اصبح قريباً

فعبس الملك عند هذا الكلام فرآه جيلبار يعبس فاستدرك قائلاً ولكن تعذرني جلالتكم لهذا القول لانني طبيب والطبيب لا يحسن التلطف في المعالجة وانما يشق الجروح شقاً رغبة في شفائها

فقال الملك بهدوء وهل ترى في فتنة اليوم اهمية كبرى فقال الدكتور ليس ما سمعتَ به جلالتكم فتنة ولكنها ثورة ناضجة . فقال الملك وما العمل انريدون ان اعاهد اثمة وقتلة يقتلون دي لوناي ولوسم ودي فلاسيل

فاجاب جيلبار مولاي لا تمزجوا هولاء القتلة بالذين فتحوا الباستيل فان الفريق الاول اثمة قتلة كما ذكرتم اما الفريق الثاني فهم ابطال وشجعان

فعبس الملك هنا مرة ثانية ثم قال يحلو لي كلامك وان كان ثقيلاً لانك تتكلم كما يتكلم البارون نا كار . وكيف تركت البارون. فقال جيلبار تركته بانتظار امر جلالتكم فقال الملك ومن اين انت آتٍ الآن . فاجاب الدكتور باسماً من الباستيل

فرفع الملك رأسه وسأله كيف تأتي من الباستيل فقال الدكتور كنت من جملة مسجونيه . فزاد استغراب الملك وقال ولماذا سُجنت في الباستيل فقال جيلبار باسماً ايضاً هذا هو الامر الذي تشرفت بمقابلة جلالتكم لاسألها عنه . فقال الملك وبامر من

كان سجنك فقال جيلبار يامر جلالتكم فضحك الملك وقال ولكني انا لم اسمع باسمك ولم اعلم بوجودك في هذه البلاد · فقال جيلبار بهيئة جدية · مولاي ان في كلامك هذا دليلاً على انك تجهل ما يُصنع الآن باسمك من الشرور وهذا مما يبرّئوك لدى الاجيال الآتية ولكن لا يوجد على ورقة الامر سجني اسم جلالتكم فقط بل عليه امر من جلالة الملكة ايضاً

فرفع الملك راسه وقال لعلك اغضبت الملكة · فقال جيلبار انا على يقين ياسيدي من انها تجهل وجودي في العالم ايضاً فقال الملك فما هذا السر اذاً · فاجاب جيلبار السرُّ في ذلك ان امرأة تدعى الكونتس دي شارني طابت من جلالتها اصدار الامر بالقاء القبض عليَّ وقد ذُكر ذلك بخط الملكة على هذه الورقة

فدهش الملك وصاح · الكونتس دي شارني · هذه المرأة من صديقات الملكة وهي مثال اللطف والفضيلة والطهارة · فقال الدكتور جيلبار اذاً وُضعتُ في السجن باسم هذه الفضائل الانجيلية الثلاث فقال الملك ولكن اي ذنب صنعتَ مع هذه المراة الفاضلة فقال جيلبار انني لا اعرفها ولم اسمع باسمها الا من المسيو ناكار

فقال الملك ياللعجب ان في المسالة سرّاً · انتظر لنرى اذا كانت الكونتس في البلاط للاطلاع على هذا السر العجيب

قال هذا ومد يده فقرع جرساً

فدخل حارس فساله الملك هل الكونتس دي شارني في غرفة الملكة · فاجاب الحارس كانت الآن في غرفة جلالتها وقد نزلت الساعة لتركب مركبتها وتبرح القصر فصاح به الملك اسرع وادعها اليَّ على عجل وان كانت قد سارت بها المركبة فالحق بها

الفصل الثاني والعشرون

(التنويم المغنطيسي)

وبعد مدة وجيزة عاد الحارس فقال انه وجد الكونتس دي شارني وانها قادمة لمقابلة الملك فنظر الدكتور الى الملك واتجه نحو باب قريب يجلله ستار كثيف ليتوارى وراءه فادرك الملك قصده فتركه وشانه

وما توارى جيلبار وراء الستار حتى سُمع في باب القاعة حفيف ثوب حريري ودخلت الكونتس دي شارني

وهي امرأة غضة الصبا رشيقة القوام طويلته عصبية المزاج بجمال فتان وراس شائخ يرتفع فوق قامتها الهيفاء كانه قمر علق في طرف غصن نضير وكان في يديهـا النحيفتين المقفزتين قضيب لطيف تداعبه وتلاعبه ولوائح الكبرياء والعظمة على وجهها ممزوجة بلطف باهر وظرف ساحر تتمشى لها القلوب في الصدور

فلما دخلت تقدم منها الملك وسالها متلطفاً اظنك كنتِ على عزم الخروج من القصر ياحضرة الكونتس

فاجابت الكونتس نعم يا ذا الجلال وقد جئت امتثالاً لامرك

ولكن ما وقعت كلمات الكونتس في اذن الدكتور جيلبار حتى ثار دمه ثورة شديدة وُخيل له انه يسمع صوتاً هائلاً . ثم ارتعدت فرائصه واطلّ بالرغم عنه من وراء الستار يرى صاحبة هذا الصوت الذي اثر به هذا التاثير

فما وقع نظره على الكونتس حتى لطم جبهته بقبضته وتراجع بعنف الى الوراء مدمدماً بين شفتيه وقائلاً : هي هي بعينها . اندري . اندري . وما جاء بها الى هنا

اما الملك الذي لم يرَ اضطراب جيلبار كما ان الكونتس لم ترَ ذلك ايضاً فانه قال لها بعثت في طلبك لاسالك امرًا يا حضرة الكونتس . فاجابت مر بما تشاء ياذا الجلال

فقال الملك اريد ان اسالك اذا كنت تذكرين امرًا وقع عليه نا كار منذ ٩ او ١٠ ايام بالقاء القبض على رجل ما

فسكتت الكونتس ولبثت مبهوتة ولكن بدا الاضطراب والقلق في وجهها فاستانف الملك السؤال قائلاً هل تعلمين شيئاً عن هذا الامر ايتها الكونتس . فاجابت مترددة ومضطربة انني افتكر بذلك لعلني اذكره

فقال الملك ولكي اساعدك على ذكره اقول لك ان الملكة قد امرت بانفاذ ذلك الامر على عجل وكتبت بذلك على هذا الامر سطرًا بيدها

فسكتت الكونتس

فصاح الملك وقد كاد يفرغ صبره ما هذا السكوت ايتها الكونتس . انني اكرر سؤالي عليك فاجابت الكونتس بشيء من النزق . نعم اذكر ذلك وانا التي كتبت هذا الامر وجلالة الملكة امرت بانفاذه . فقال الملك . حسن فاريد الآن ان تقولي اي ذنب ارتكب الرجل الذي اردت القاء القبض عليه

فاضطربت الكونتس اضطراباً بيناً واجابت بنزق ايضاً اما هذا الامر فلا استطيع

ان اقوله لجلالتكم · فعبس الملك وقال الا تستطيعين ان تقولي سبب ذلك لي انا الملك فاجابت كلا يا ذا الجلال · فقال الملك بشيء من الغيظ اذا كنت لا تقولين ذلك لي فلا ريب انك تقولينه الى الرجل نفسه · اخرج ايها الدكتور

فخرج الدكتور جيلبار من مخباءه في الحال ووجهه اصفر كوجه الكونتس · فلما راته اندري تراجعت بخوف الى الوراء كانها على وشك الاغماء واصطكت ركبتاها وبقيت جامدة كالصنم لا يتحرك منها شيء غير قلبها الذي كان يخفق خفقاناً شديداً

فتقدم جيلبار وانحنى امامها باحترام شديد وقال اسمحي يا حضرة الكونتس ان اكرر عليك سؤال جلالة الملك وهو : لماذا امرتِ بسجني

فتمالكت اندري ورفعت راسها بكبرياء وعظمة ثم القت اليه نظرة احتقار واشمئزاز وصاحت في وجهه · انا لا اعرفك

ولكن قبل ان تتم كلامها اوقد جيلبار النار في نظره الحاد الذي ينفذ الى اعماق القلوب والقاه على نظرها بقوة وعنف فخفضت اندري نظرها امام نظره واطرقت الى الارض صامتة · فقال الدكتور · اذا كنتِ لا تعرفينني ايتها السيدة فكيف تامرين بسجني

فالتفت هنا الملك الى اندري قائلاً اندري اظنك قد اخطاتِ المرمى · فان الدكتور جيلبار رجل فاضل عالم لا يستحق الاهانة التي لقيها

فرفعت اندري راسها مرة ثانية والقت على الدكتور نظراً طافحاً بالاحتقار والازدراء · فبقي الدكتور ثابت الجاش وهادئاً فقال الملك لا ريب عندي انك اذا ابغضت احداً فانه يكون مستحقاً لبغضك وعقابك ولكن يجب ان تحرصي مرة اخرى على ان لا يصيب العقاب رجلاً بريئاً · اما عملك مع الدكتور ايتها الكونتس فهو عمل سيء .

فقالت اندري اظن جلالتكم : فقطع الملك عليها الكلام مخافة ان يكون قد اغضبها وهي المقربة من الملكة زوجته وقال لا يغضبك كلامي ايتها الكونتس فاننا كلنا عرضة للخطاء في هذه الحياة واؤمل ان لا تخطئي مرة اخرى بهذا الشان

ثم سكت الملك حاسباً انه ارضى الفريقين بهذا الكلام ولكن الدكتور لم يرض فتقدم من الملك وانحنى باحترام قائلاً — التمس من جلالتكم ان تسالوا حضرة الكونتس اذا كان حقيقةً ما تقوله من انها لا تعرفني قبل الآن · فقال الملك اجيبي ايتها الكونتس· فاجابت كلا لا اعرف الدكتور جيلبار

فقال الدكتور ولكن الا تعرف رجلاً آخر يدعى جيلبار فقالت اندري باحتقار

اعرف رجلاً آخر باسم جيلبار ولكني احتقره لانه وغد ولئيم فقال جيلبار التمس من جلالة الملك ان يسال الكونتس لماذا تقول عن هذا الرجل انه وغد لئيم . فقالت اندري بكبرياء ايضاً اقول ذلك لانه قد ارتكب منذ ١٧ سنة جناية تدل على لؤمه ودناءة نفسه فقال جيلبار ارجو من جلالتكم ان تسالوها كم عمر هذا الرجل الآن فسالها الملك كم سنة عمر هذا الرجل الآن . فاجابت الكونتس عمره ٣٢ سنة

فقال جيلبار فيكون اذاً عمر هذا الرجل عند ارتكابه الجناية التي اشارت اليها الكونتس ١٥ سنة فقط . اذاً كان هذا الشخص ولداً غير مسئول لا رجلاً

فقالت اندري اما انا فاني احتقر الولد والرجل معاً

فقال جيلبار اذا استحق جيلبار الولد احتقاراً فان جيلبار الرجل لا يستحق الاحتقار لان حياته بيضاء كالثلج لم توصم بعار وقد قضى حياته منذ الغلطة المذكورة مكفراً عن ذنوبه

فقالت اندري ليس التكفير عن الذنوب بكتابة الاسفار والمقالات التي يُطعن فيها على الحكومة فضحك الدكتور وقال هذه حجة ليس الا والتمس من جلالتكم ان تسالوها اذا كانت لم تتخذ هذه الحجة وسيلة للحصول على صندوقة صغيرة كانت للرجل الذي نعنيه الآن

فارتعدت فرائص اندره عند ذكر الصندوقة وجرى الدمُ بارداً في عروقها فقال الملك سمعتِ ايتها الكونتس سؤال الدكتور

فقالت بغيظ وهياج لا اعلم ماذا يقول . فقال الملك يسالك عن الصندوقة هل امرت باخذها . فقالت لا اعرف هذه الصندوقة

فاحتدم هنا الدكتور غيظاً وصاح غير متهيب . كونتس كونتس فلنترك الرياء والكذب جانباً . انا هو جيلبار المعني . جيلبار الجناية كما ذكرت . وانتِ المراة المعنية . فانتخذ الملك الآن حكماً عادلاً بيننا فنطلعه على كل شيء وهو يحكم فينا

فحوّلت اندري وجهها عنه بالم شديد وهياج بالغ حده لا يُعرف معه اذا كانت حمرة وجهها خجلاً ام انفعالاً ثم صاحت به قل ما شئت انت . اما انا فلا اعرفك ولا اعرف صندوقتك

فاستشاط جيلبار غيظاً وخرج عن حد الاعتدال وصاح بها مدام . مدام اذكري انني تلميذ بالسومو وان لي قوة غير اعتيادية . فاذا لم تتكلمي طوعاً جعلتك تتكلمين كرهاً

والآن فانني اسالك امام الملك اين صندوقتي

قال هذا وتقدم منها محدقاً بها بنظره الحاد . فحوّلت وجهها عنه مرة ثانية قائلة لا اعرفك ولا اعرف صندوقتك ثم حاولت الفرار من الغرفة فقطع عليها الدكتور الطريق وصاح قائلاً . ولكن لا بد من سحق كبريائك وطأطأة عنفوانك امام ارادتي . اخبريني هل تدلينني على صندوقتي ام لا . فاجابت لا اعرفك ولا اعرف صندوقتك

فرفع حينئذٍ الدكتور يده وقال اذن انفتحي ايتها النفس المغلقة واظهري خفاياك للشاهد ممنا في هذا المكان . اندري اندري . ستتكلمين بالرغم عنك وتدلينني على صندوقتي . تقدم ياجلالة الملك واسمع اقرارها من فمها . اندري . اندري آمرك الآن بالنوم . نامي نامي هذه ارادتي

وما لفظ الدكتور هذه الكلمات حتى اصطكت ركبتا اندري وارتجف جسدها ثم انطرحت على غير هدى بين ذراعي الملك كأنها تلتجيء اليه . فاخذ الملك يرتجف عند هذا المنظر وعلم ان الدكتور ينومها نوماً مغنطيسياً فقال للدكتور انني سمعت بهذا ويسرني الآن ان اراه ولكنني اخشى على حياة الكونتس فقال الدكتور لا تخشَ يامولاي فاني اؤثر على النفس لا على الجسد . ثم التفت الى الكونتس قائلاً . مدام دي شارني آمرك بان تنامي

فاخذت الكونتس تختلج اختلاجاً شديداً لانها نامت النوم الصناعي الذي اراده الدكتور . فاوعز الدكتور الى الملك ان يتقدم منها ويأخذ يدها ثم يسألها ما يريد معرفته

فتقدم الملك وهو متردد حذر واخذ يدها والقى عليها هذا السؤال . اذاً انت التي القيت القبض على الدكتور جيلبار ايتها الكونتس

فارتجفت الكونتس وتنهدت من اعماق صدرها واصطكت اسنانها ثم صاحت . لا اتكلم لا اتكلم

فعجب الدكتور من قوة ارادتها مع نومها . فتقدم منها وقال بلى بلى لتتكلمين فهالها جداً تقدمه منها فاضطربت واختبطت. فدنا منها الدكتور قليلاً ايضاً فزاد اضطرابها واختباطها حتى وصل اليها فرفع يده فوق رأسها ثم انزلها وهو محدق بها وقال . تكلمي الآن

فاثرت فيها هذه الحركة تأثيرًا غريباً . فانها كانت مضطربة مختلجة مصطكة الاسنان

تضم شفتيها قصداً لمنع الكلام ان يخرج منهما فلما ان حرك الدكتور يده فوق رأسها هدأ اضطرابها وتنفست الصعداء كأن بلاطة انزلت عن صدرها . ثم ارتخت اعضاؤها وخرج من فمها هذه الكلمات : الهي الهي رفقاً بي

فسأل الدكتور الملك ان يشرع بسؤالها فسألها الملك اسئلة متتابعة كانت تجيب على كل واحد منها بالرغم عنها . وهذه صورة الاسئلة والاجوبة

سألها الملك هل ان الشخص الذي اردت سجنه هو الدكتور جيلبار . فقالت اندري وهي نائمة . نعم نعم وما اشد بغضي له . فقال الدكتور ابغضيه ما استطعت ولكن تكلمي. فسألها الملك وما هذه الصندوقة التي ذكرها . فقالت اندري كيف استطيع ان اترك هذه الصندوقة في حوزته . فنظر الملك الى جيلبار ونظر جيلبار اليه . ثم سألها الملك وهل اخذتها فقالت نعم اخذتها قال وباية واسطة قالت ارسلت رجالاً من البوليس الى مزرعة في جوار فيلاه كوتريه فاخذوها منها . فسأل الملك وكيف علمت بوجودها في هذا المكان . قالت ذهبت الى مسمر (١) فنومني نوماً مغنطيسياً فرايتها فقال في اي مكان كانت . قالت كانت في خزانة كبيرة مخبوءة تحت الثياب ولما نمت رايتها . فسأل الملك واين هي الآن. فاختلجت هنا اندري اختلاجاً شديداً لانها ارادت ان تمنع نفسها من الكلام . فصاح بها الدكتور إريد ان تقولي اين الصندوقة الآن . فزمجرت اندري كما تزمجر اللبوة فقال الملك اني إخشى على حياتها ايها الدكتور فقال جيلبار لا خوف ابداً . ثم قال لها . قولي اولاً للملك اذا كانت هذه الصندوقة لك ام لي . فقالت اندري بل هي لك فقال الملك اذا كانت له

مسمر — هو فردريك انطوان مسمر من علماء المانيا ولد في سنة ١٧٣٧ وتوفي في سنة ١٨١٥ وهو ناشر التعاليم المتعلقة بالتنويم المغنطيسي الحيواني الذي قد يسمونه مسمريسم نسبة الى اسمه . الف في اول امره كتاباً موضوعه تاثير اجرام السماء على الاحياء ذهب فيه الى ان الاجرام بتجاذبها بنسبة معتدلة تؤثر على الاحياء وبالخصوص على اصحاب الامزجة العصبية بواسطة سيال يدخل الى باطن الانسان والحيوان وهو المغنطيسية الحيوانية . ثم بعد هذا الكتاب اخذ ينشر مبدأه في التنويم المغنطيسي فنجح نجاحاً غريباً فانه شفى امراضاً بالتنويم واكتشف اسراراً وعلم بالغيب وكان يجعل النائمين ينظرون في نومهم اموراً بعيدة عنهم كانهم يشهدونها في الحقيقة وذلك على نحو ما جرى للكونتس دي شارني في هذا الفصل من الرواية . ولاشتهاره في اوربا استدعته الحكومة الفرنسوية في سنة ١٧٧٨ الى باريز واقترحت عليه ان يطلعها على اكتشافه وطريقة تنويمه فتمنحه عشرين الف جنيه فابى

فاخبرينا الآن اين هي · فقالت هي عند رجل البوليس الذي اخذها من المزرعة · قال وماذا يصنع بها قالت قد جاء بها الى منزلي في فرساليا · قال في اية غرفة وضعها · قالت انني اراه الآن وقد وضعها في القاعة وهو بانتظاري · قال وهل هو جالس ام قائم قالت بل هو قائم ومستند الى الموقد قال والصندوقة قالت الصندوقة موضوعة الآن على مائدة امامه · ولكن آه · آه · فقال الملك ماذا · قالت ويلاه يجب اخراجه واخراجها · قال لماذا قالت لان زوجي المسيو دي شارني عائد الآن الى المنزل وكان في عزمه ان لا يعود الى فرساليا قبل غد · اخرجوها اخرجوها لئلا يراها

فقال جيلبار وهل تريدين ان تقولي للملك ما يوجد ضمن هذه الصندوقة

فصاحت عند ذلك اندري صيحة الهول والرعب وغطت وجهها بيديها · فندم الدكتور على هذا السؤال فالتفت الى الملك قائلاً · سمعت يامولاي من فمها ان هذه الصندوقة ملكي فهل تامر جلالتك بارجاعها اليّ · فقال الملك ذلك من حقك ثم سحب على الكونتس ستاراً يغطيها وقرع جرساً فدخل حارس فهمس اليه الملك في اذنه يامره بالذهاب الى منزل الكونتس في الحال لاحضار الصندوقة

وبعد خروج الحارس كشف الملك الغطاء عن جسم اندري · وكان الدكتور قد ابتعد عنها ففارقها الاضطراب والاختلاج اذ قد فارقها المؤثر فيها وحل مكان الانفعال الشديد هدوء تام فاصبحت اندري نائمة نوماً طبيعياً هادئاً

ولما كشف الملك الغطاء عن جسم الكونتس ظهر لها جمال بارع يفتن النواظر كان التنويم المغنطيسي قد اكسبها بهاء جديداً فتنهد جيلبار واغمض عينيه وحولها عن ذلك الجمال الفتان

فسال الملك جيلبار كيف العمل بالكونتس فاجاب جيلبار ارى من الاوفق ان لا انبهها

فقام حينئذٍ احد تلامذته ويدعى بركاس وجمع نحو ٣٤٠ الف جنيه واشترى بها سر استاذه فلقنه مسمر شيئاً من اسراره ولكن لم يطلعه عليها كلها · ثم عينت الحكومة الفرنسوية لجنة من العلماء لفحص مبادىء التنويم فوضعت اللجنة تقريراً ضده فغضب مسمر وسافر من باريز بعد ان صرف في فرنسا نحو سبع سنوات · وبعض الناس يعزو الشعوذة الى مسمر بالرغم عن ثبوت فعل التنويم وذلك لعجزهم عن تعليله ولكن ليس ذلك من الحكمة في شيء اذ كم من الاشياء يجهلها الانسان فليس من العقل ان ينكرها لانه يجهلها · وفي هذا الفصل بيان طريقة التنويم ووصف بعض تاثيره ولمسمر مؤلفات جمة في المغنطيسية الحيوانية

هنا فانها تخجل من رؤية جلالتكم ورؤيتي بعد ما صنع بها فالاوفق اذاً ان تنقل الى مكان آخر تنتبه فيه وتنبيهها في يدي فانها لا تفيق الا متى اردت ثم سال الملك الى اين تطلب جلالتكم نقلها فقال الملك الى منزل الملكة قال وهل المسافة بعيدة فاجاب الملك عشر دقائق فاقترب جيلبار من جثة الكونتس وامرّ يده عليها وصاح بها ابقي نائمة ولا تنتبهي الا بعد عشر دقائق

ثم قرع الملك الجرس فدخل حارس فقال له احملوا الكونتس دي شارني الى منزل الملكة فانها قد اغمي عليها عندنا لما سمعته من اخبار باريز

فحملها الحراس وساروا بها لوضعها في احدى غرف منزل الملكة

وبعد مدة وجيزة عاد الحارس الذي انفذه الملك للمجيء بالصندوقة وهو يحملها بين يديه فتناولها جيلبار فرحاً بها وقبل خروجه من عند الملك ساله الملك قائلاً فرغنا الآن من امر صندوقتك فماذا تطلب منا . فقال جيلبار اسال جلالتكم ان تاذنوا بتعييني من اطبائكم فاكون بازاء جلالتكم خادماً اميناً وطبيباً نافعاً . فاجابه الملك الى طلبه وخرج جيلبار من لديه ليعود بعد ذلك ويقيم في قصر الملك اقامة نهائية

الفصل الثالث والعشرون

(الملكة ماري انطوانت)

كان الملك يهتم بهذا الامر الصغير ومنزل الملكة غاص بالقواد والاعيان ورجال الاكليروس ونساء الاشراف . ذلك ان اركان الملكية في ذلك الزمان كانوا يرون الملكة قوية شديدة فكانوا يلتفون في اوقات الضيق حولها

وكانت الملكة جالسة على كرسي وفي وجهها وعينيها لوائح الغيظ والكبرياء وحولها جماهير ممن ذكرنا وهم يتحادثون بثورة الشعب واستيلائه على الباستيل . وبقيت الملكة مبهوتة ساكتة حتى دخل البرنس لامبزك فخفت اليه لاستطلاع الامر لانه كان قادماً من باريز وسالته بلهفة ماذا جرى ايها البرنس فاجاب البرنس منحنياً لا شيء يا جلالة الملكة سوى ان الشعب يقتل ويحرق . قالت ولماذا قال لانه وحش قاس

فسكتت الملكة مبهوتة ثم قالت اصدقني ايها البرنس لماذا الشعب يقتل ويحرق قال قلت الحق لجلالتك وهو انه وحش قاس . قالت اذن لا يفعل ذلك عن بغض لي . فسكت البرنس هنيهة ثم قال لا عن بغض لجلالتك ولكن عن بغض لجميع الذين يحكمونه

فقالت الملكة بغيظ وماذا يجب ان نعمل فاجاب البرنس لا شيء

فصاحت الملكة كيف تقول لا شيء البار يزيون يسفكون الدماء ويهدمون السجون وتقول انه لا يجب ان نصنع شيئاً

وكان الضباط وقواد الجند وجمهور الحاضرين مصغين الى الملكة كل الاصغاء فعلا بينهم ضجيج الاستحسان لهذا الكلام · وصاح صائح من بين الضباط قائلاً يجب ان يعاقب المتمردون

فالتفتت الملكة الى حيث خرج الصوت فوقع نظرها على شاب لطيف الهيئة فقربته منها وسالته رايه · فاجاب رايي ان يامر جلالة الملك الجند الذين حول باريز وعددهم نحو اربعين الف مقاتل ان يزحفوا على المدينة ويطلقوا النار عليها من جهاتها الاربع فيخمد ثورتها في ساعة واحدة

وكان هذا الراي راي جميع اكابر القواد والضباط الحاضرين · وكلهم متحمسون ملتهبون غيرة ومستعدون لسفك آخر نقطة من دمائهم في سبيل ملكهم وملكتهم · وكانوا يتحادثون فيما بينهم في طرق القتال الذي يجب ان يكون اخماداً للثورة والهياج سائد بين جميع الحاضرين واذا بالملك داخل عليهم من غير اعلان حضوره

فلما ابصروا الملك داخلاً نهضوا جميعاً وسكتت ضوضاؤهم· فتقدمت الملكة من الملك ولبث الحاضرون شاخصين اليهما كليهما ينتظرون الكلمة الاولى التي سيقولها الملك لمعرفة رايه في ذلك الحادث العظيم

اما الملك فدخل متثاقلاً في مشيه حتى اقترب من الملكة وقال — الظاهر انهم نسوا عشائي وسط هذه الحوادث ايتها السيدة فجئت !سالك ان تعشيني عندك

فدهش الجميع لهذا الكلام في مثل ذلك الوقت وبهتوا وعضت الملكة شفتيها حنقاً ولكنها عادت فافتكرت ان الملك ما قال هذا القول الا ليخمد ثورة الافكار ويطمئن الخواطر فسكن جاشها ولكنها قالت له بصوت منخفض · كيف يمكن ان نتعشى هنا وسط هذا الجمهور · وفضلاً عن هذا فيجب ان نتحادث في الامر العظيم الذي حدث· فقال الملك بصوته الجهوري لا باس لا باس اتعشى هنا ونتحادث وانا على العشاء

فسكن بلبال الضباط والقواد قليلاً عند قول الملك « نتحادث على العشاء » وتحققت الملكة ان الملك مهتم بالامر ولكنه لا يظهر هذا الاهتمام · ولكنها كانت مخطئة في ظنها فان الملك كان جائعاً وهذا هو كل السر في المسالة ...

وبعد ان جلس الملك الى مائدة الطعام التي وضعت له في تلك القاعة تقدمت منه الملكة تحادثه في الامر ايقاداً لنار الحمية في صدور الضباط والقواد بعد ان اخمدها الملك « بعشائه » كما تخمد الماء ناراً مضطرمة . فقالت له . ما راي جلالتك واي امر تصدر بهذا الشان فاجاب الملك وفمه ملآن بالطعام واي امر يجب ان أصدره فقالت الملكة ان جميع الناس مجمعون على انه يلزمنا الآن ملك حربي يقمع ثورة الثائرين وان الاعتدال والرفق والحلم لا تغني مع هولاء المعتدين شيئاً . فماذا تقول جلالتك . فقال الملك وهو يضحك ويقضم لقمة كبيرة من لحم الحجل اقول ان في العجلة الندامة وفي التأني السلامة

فامتلأت نفس الملكة غيظاً وحنقاً . فانها كانت تريد ان تقاوم القوة بالقوة وتضرب الثائرين ضربة كبيرة كما ضربوا هم ضربة كبيرة فاذا بها ترى الملك بهذا الفتور والضعف والعجز فتحولت عنه الى النافذة وعيناها مغرورقتان بالدمع غيظاً وحنقاً

وكان الضباط قد اخذوا بالتفرق لما رأوه من ضعف الملك وسقطت امالهم فيه . فاستشاطت الملكة غيظاً ورأت ان تفرق هولاء المجتمعين لاستماع امر الملك بمثابة تفرق قوة الملكية وتضعضع اساسها فاقتربت من الملك بنزق وصاحت به . ان جميع هولاء الشجعان ينتظرون امر جلالتك ونحن الآن بحاجة الى العمل . فما راي جلالتك

فرفع الملك بصره فوقع على المارشال دي برولي الذي كان حاضراً فساله ما رايك ايها المارشال فاجاب هذا القائد رايي يامولاي انك اذا ابعدت جيشك عن الباريزيين قيل انهم هزموه واذا بقي قريباً منهم وجب ان يهزمهم

فصاحت الملكة احسنت احسنت ايها المارشال ومدت اليه يدها فصافحته

فقال الملك وايهما تختار انت

فقال المارشال انا اختار ان يهزم الجيشُ الباريزيين . فمر بالزحف عليهم

فصاحت الملكة نعم مر بالزحف عليهم

فقال دي بزانفال نعم مر بالزحف عليهم

فقال الملك حينئذٍ اذا كان هذا رايكم فازحفوا عليهم

ولكن ما اتى الملك على هذا الكلام حتى دخل حارس والقى الى الملكة ورقة صغيرة ففتحتها فوجدت فيها ما ياتي :

« استحلفك باسم الله ان لا تسرعي في هذا الامر واني في انتظار جلالتك في الغرفة المجاورة »

فلما قرأت الملكة هذه الكلمات قالت بنفسها هذا خطه فيجب ان يكون قد عاد . ثم سألت بصوت عالٍ هل عاد المسيو دي شارني . فاجابها الحارس نعم عاد في هذه الساعة . فقالت الملكة انتظروني قليلاً ايها السادة ثم دخلت الى الغرفة المجاورة

الفصل الرابع والعشرون

(حبيب الملكة)

لما خرجت الملكة من القاعة ودخلت الى الدهاليز الخارجية وجدت في غرفة مجاورة الرجل الذي بعث بالورقة اليها

وكان هذا الرجل شاباً في نحو الخامسة والثلاثين من العمر . عالي الهامة حاد النظر ذا عينين زرقاوين ووجه صبوح وهيئة حربية ومنظر يدل على شرف نسبه . فلما وصلت اليه الملكة وجدته يرتجف والغبار على ملابسه من السفر فصاحت به ما جاء بك ايها الكونت فانحنى الشاب بلطف كثير . وقال رأيت من واجباتي ان اكون بجانب جلالتك في هذه الاحوال الخطرة فاتيت واذا امرتِ فانني اعود على عجل الى مركزي في حراسة قصر التويلري في باريز . قالت وما وراءك من اخبار باريز . قال باريز قائمة قاعدة ياسيدتي فالتفتت الملكة ولما لم تجد احداً جلست واجلسته بجانبها وقالت . اسمع يا اوليفيه انك قد جئتني ونفسي حزينة حتى الموت . فانني اصبحت ارى كل شيء حولي خطراً في خطر . السماء حمراء كانها تنبئ بقرب سفك الدماء واصدقائي وانصاري يتخلون عني والهواء تعصف فيه عواصف بعيدة اسمع منذ الآن اصواتها الهائلة فكيف العمل في هذه الاوقات السيئة

فاجاب الشاب لا شيء ياسيدتي غير الصبر وانتظار رحمة الله . اما الزوبعة القادمة فاننا نقاومها بما في استطاعتنا فان صرعتنا رحنا شهداءها وان قدرنا على صرفها عنا كان ذلك عوناً من الله لنا

وفيما كان يتكلم مست يد الملكة يده فاخذتها الملكة بين يديها وضغطتها ثم قالت ما ليدك باردة كالثلج ثم مدت راحتها فوضعتها على جبهته ومسحتها قائلة وما لجبهتك ملتهبة كالنار فقال الشاب لان النار متقدة في راسي ياسيدتي فان ما رأيته اليوم لم يسبق لي انني رايته قبل الآن شعب هائج كالاوقيانوس العظيم سكران بخمرة الانتقام والقوة قد هدم الملكية بضربة واحدة

فعبست الملكة وقالت وهل تُهدم الملكية بهدم احد سجونها فقال الشاب ليس المؤثر

هدم السجن ولكن سريان المبادي الجديدة الهائلة التي تصنع العجائب في هذا الزمان فان حرب الحرية الاميركية قد نشر روح الاستقلال في جميع اقطار الارض فهب على العالم القديم ريح جديدة مهرت في كل النفوس تملاؤها حماسة جديده وقوة جديدة والشعب هدم الباستيل في هذا النهار بقوة هذه المبادئ الجديدة

فنظرت اليه ماري انتوانت نظرة حزن وحب معاً وقالت

وما رأيك في الشعب اظنك تقول انه محق ايضاً فقال اوليفيه نعم اقول انه محق يا ملكتي لانه قد تعذب كثيراً وكيف لا يتعذب اذا كان يقضي عمره بلا خبز ولا عناية ولا حرية في حين اننا نحن ابناء الاشراف نلبس الملابس الذهبية ونأكل المآكل الطيبة ونخزن الاموال الوافرة فلا تلوميه وانما اللوم على حكامه الذين احرجوه فاخرجوه من الطاعة الى التمرد والعصيان فقالت الملكة مبهوتة وهل تحسب انه لم يبق امل لنا بالنجاة بعد قال نعم ياملكتي لقد اضعنا كل امل ولكننا اذا متنا فاننا نموت معاً وهذا الذي جاء بي اليك لقد سمعتك الآن وانت في القاعة تحرضين الملك على ارسال جنوده الى باريز فنصيحتي اليك ياملكتي ان تتركي ذلك فان اربعين او خمسين الف جندي تسوقينها على شعب باريز لا يكون شانها معه الا شان جرة ماء تصب في الاوقيانوس العظيم لان في باريز خمسمائة الف رجل مسلح وجميعهم مستعدون للقتال يفلون اعظم جيش في ساعة واحدة

قال هذا واتقدت عيناه بنار الحماسة والحب اما الملكة فاظلمت الدنيا في وجهها واغرورقت عيناها بالدمع فاخذت يد الشاب بين يديها بحنو وحب شديد فجثا الشاب امامها كما يجثو المجوسي امام الشمس في الصباح او كما كان يجثو قدماء المصريين امام الالاهة ايزيس وقبل ذيلها باحترام يقرب من العبادة فانهضته ماري انتوانت ثم مسحت دمعها قائلة دعني الآن من السياسة واصدقني اجئت لتراني ام جئت لامر آخر فاجاب الشاب وهل تشكين ياسيدتي في انني قادم لاجعل جسمي سوراً دونك وحياتي فدى لحياتك قالت ولكنني اسالك ان تصدقني اما كتبت لك الكونتس دي شارني زوجتك بالمجيء الى فرساليا قال لا فسكتت الملكة هنيهة ثم سالته بغتة . اتحبني يا اوليفيه فاجفل الشاب لهذا السؤال



رأينا نشر رسم مدام دي ستايل هنا ايضاً لان الرسم الذي نشرناه في الملزمة السابقة صفحة (٧٦) لم يكن واضحاً

واضطرب ثم اجاب انك تعلمين ياسيدتي ان حياتي وقلبي بين يديك قالت لي اليك سؤال فهل تجيبني اليه قال مري يامولاتي فانني عبدك وخادمك فترددت ماري انطوانت قليلاً ثم سالته هل تحب الكونتس كثيرًا يا اوليفيه

فسكت الشاب قليلاً ثم قال ما كنت انتظر من جلالتك هذا السؤال بعد ما علمته من الاتفاق الذي عقد بيننا فقالت ماري انطوانت اسمع يا اوليفيه انني لا ازال شابة فانا اشعر دائمًا في داخلي بصوت الحب والشباب يصرخ بازاء صوت الهول والمصاب الذي يتوعدني الآن من كل الجهات وهذا الصوت صوت الحب يعذبني كثيرًا كلما رايتك مستندًا الى ذراع اندرى لانني اذكر كلما رايتك مستندًا الى ذراعها ان قلبها قريب من ذراعها

فاطرق الشاب قليلاً ثم قال كانني فهمتُ قصد جلالتك . ولكنك تعلمين ياسيدتي ان اندري وحيدة فريدة في هذه الحياة لاسند لها غير اخ يدعى مزون روج لا تراه الا مرة في السنة . ولا تجهلين ياسيدتي ان اندري لا تذوق في بيتي هناء المعيشة الزوجية وانها لا تزال الى الآن طاهرة التصورات عذراء كما كانت قبل زواجنا . فبازاء المتاعب الكثيرة التي لقيتها معي لا ارى من واجباتي ان ازيد متاعبها بالانفصال عنها

فحاولت الملكة هنا تغيير هذا الحديث فمدت اليه يدها للمرة الثالثة فاخذها الشاب بين يديه وقبلها باحترام

ولكن لم يفرغ من تقبيلها حتى سُمع من وراء الباب صراخ شديد . فالتفتت الملكة فوجدت اندري تختلج امام الباب مغمياً عليها . فاندفع اوليفيه ليرى ماذا حلّ بزوجته واما الملكة فتراجعت الى الوراء وقد طار صوابها واصفر لونها لعلمها بان الكونتس قد سمعت ما دار بينها و بين اوليفيه زوجها

الفصل الخامس والعشرون

(حب وغيرة بين ثلاثة)

اخذ الكونت دي شارني امرأته اندري بين يديه وهي ترتعش وتختلج من النوبة العصبية التي كانت مصابة بها و وقفت الملكة بجانبه تنظر اليه واليها

وبعد اختلاج بضع دقائق صرخت اندري صوتاً وفتحت عينيها . فاذا بهما كجمرتين متقدتين فيهما شرر الغضب والغيظ . ولما وقعت عينا اندري على الكونت زوجها حوّلت

وجهها عنه بشراسة دون ان تعرفه ودفعته عنها الى بعيد · ثم رجعت الى نوبتها

فدهش دي شارني وقال للملكة ارجو المعذرة يامولاتي لتكدير صفوك على انني الآن في غاية الدهشة اذ لم يسبق لي ان ارى اندري مغمى عليها قبل الآن لما اعرفه من ثبات جاشها وقوة نفسها

فنظرت اليه الملكة وابتسمت فتعامى دي شارني عن هذا الابتسام لانه كان مشغول البال بعلة اندري فقال · هل تامرين جلالتك ان تنقلها الى منزلها · فاجابت الملكة اصنع ما تشاء· ثم مدت يدها وقرعت جرساً تدعو خادماً لنقل الكونتس

ولكن ما قُرع الجرس حتى اجفلت اندري لصوته فنهضت قائمة على قدميها بقوة وعنف وصاحت وهي ترتجف — جيلبار جيلبار

فنظرت الملكة الى الكونت ونظر الكونت اليها عند لفظ اندري اسم «جيلبار» كأن كلاً منهما يسأل الآخر عن مقصود اندري بهذا الاسم

ولكن اندري بعد هذا الاضطراب الاخير عاد اليها صوابها ففتحت عينيها بلطف وهدوء واتفق حينئذٍ دخول الخادم الذي دعته الملكة فصرفته اذ لم تبق حاجة اليه

ولما وقع نظر اندري على الكونت زوجها عرفتـه فابتسمت له الطف ابتسام وامتلأت عيناها بدل الغضب الذي كان فيهما حباً وحنواً · ثم التفتت فابصرت الملكة فتركت الابتسام وانحنت باحترام امامها

فقال لها الكونت · ماذا اصابك يا كونتس فقد ملأتِ نفوسنا خوفاً عليك اني اعهدك قوية فما هذا الضعف · فاجابت اندري بهدوء ورزانة وهل من غرابة في اغماء النساء اذا كان الرجال انفسهم يخافون في الاحوال الحاضرة · لقد احسنت جدّاً في تركك باريز ايها الكونت

فقالت الملكة فيكون اذاً سبب اغماء الكونتس خوفها على الكونت فقط · فقالت نعم ياجلالة الملكة · فأحس الكونت بما في سؤال الملكة من الغيرة

ثم قالت الملكة ولكن لا موجب للخوف يا كونتس واخشى ان يكون لانفعالك سبب آخر تكتمينه عنا · فقالت الكونتس كيف تقولين ياسيدتي انه لا موجب للخوف مع انني ارى جلالتك نفسك في قلق واضطراب ايضاً بدليل ان عينيك مبتلتان بالدموع

فعضت الملكة شفتها واحس الكونت هذه المرة ايضاً بما في كلام اندري من المرارة والابهام

فقالت الملكة انما قلت ما قلت ياعزيزتي استنادا الى ما نطقتِ به مدة اغمائك فامتقع هنا وجه اندري وغار كل دمها الى قلبها فسالت . بماذا نطقت في اغمائي . قالت ذكرتِ اسماً . قالت وقد اشتد امتقاع وجهها . ما هذا الاسم . فقالت الملكة وهي تحدق جيداً فيها هو " جيلبار "

وكما ينغلق السحاب بعد وميض البرق هكذا انغلقت سحنة اندري بعد التاثر الذي بدا على وجهها اولاً . فقالت بتجلد ورزانة غريبة . فهمت الآن ماذا تقصدين ياسيدتي فانني في مقابلتي الملك في هذا المساء وجدت لديه رجلاً فاضلاً عالماً يدعى جيلبار وهو يفصل لجلالته حوادث باريز ويذكر احوالها وفظائعها مما ارعبني فبقي تاثيره في نفسي . وفيما كنت قادمة لزيارة جلالتك اغمي علي قبل دخولي

وكأن الملكة لم يقنعها هذا الكلام فسكتت هنيهة ثم قالت للكونت . ارجوك ايها الكونت ان تهتم بما كنا نتباحث به فاذهب من قبلي الى لامبزك وبرولي وبزانفال وابلغهم ان يجمعوا جيوشهم وينتظروا امر الملك غداً . وان لا يتعجلوا شيئاً

فانحنى دي شارني وتاهب للخروج فنظرت اليه الكونتس نظرة خصوصية بعينين طالحتين حنواً وحباً كانها تريد ان تدفعه بنظرها الى الخارج دفعاً . وقبل خروجه نظر الكونت الى الملكة ونظرت الملكة اليه ففهم كل منهما معنى نظرة الآخر . ولو كان هنالك من يقرأ في العيون لعرف ان الملكة كانت تقول له بنظرها « لا تغب كثيراً عني » وان الكونت يجيبها « ساعود قريباً »

وبعد خروج الكونت تغيرت حال الكونتس فاصفر وجهها وخانها جلدها فالقت بنفسها على المقعد خائرة القوى . وكانت الملكة تنظر اليها فقالت لها . كونتس انني ارسلت الكونت في مهمة ليخلو لنا الجو ونتحدث في شانك فهل تسأليني حاجة او انت تشكين من امر فانك تعلمين حبي لك ورغبتي في خيرك . وقد كنتِ متجلدة امام الكونت فلما ذهب استسلمتِ الى الضعف مما يدلني على وجود سر يزعجك فهل لك ان تطلعيني على سبب ذلك

فرفعت الكونتس راسها بشيء من الخجل والكبرياء وقالت . كلا ياسيدتي فانني في راحة فقط والتمس منك ان تأذني لي بالذهاب الى منزلي طلباً للراحة . فعلمت الملكة ان الكونتس لا تريد ان تقول لها شيئاً

ولو نظر الى هاتين المرأتين رجل على شيء من الفراسة والنباهة لادرك من هذا الحديث

المقتضب الذي دار بينهما انهما عدوتان وصديقتان معاً · فانه كان يعلم من حذر احداهما الاخرى وعدم استسلامها اليها انهما عدوتان وكان يعلم من انعطاف الملكة على اندري واحترام اندري الملكة احتراماً حقيقياً ظاهراً في كلامها وحركاتها انهما صديقتان

ولما سالت اندري الملكة الاذن بالذهاب اذنت لها فقامت اندري متثاقلة واتجهت صوب الباب ووضعت يدها عليه لفتحه

ولكن قبل فتح الباب سمعت وراءه صوتاً جهورياً علمت انه صوت الملك يصدر امراً الى الخدم وهو قادم لمقابلة الملكة

فجرى الدم بارداً في عروق اندري ورجعت القهقرى بخوف صائحة الملك الملك يامولاتي · فقالت الملكة مدهوشة واية غرابة في ان ياتي الملك يا كونتس · فصاحت اندري مولاتي مولاتي · لا اريد الآن ان ارى الملك ولا ان يراني لانني اموت خجلاً · فقالت الملكة وقد اشتدت دهشتها ولماذا ذلك يا عزيزتي قالت اندري ساقول لك السبب انما التمس منك الآن مكاناً اختبئ به لكي لا يراني · فقالت الملكة مبتسمة · ولكنك تخبرينني بكل شيء فقالت اندري مضطربة خائفة · نعم نعم بكل شيء فقط دعيني اختبئ عندك فاشارت الملكة الى غرفة مجاورة وقالت لاندري ادخلي هذه الغرفة واقفلي الباب وراءك وانا على ثقة من ان سجنك لا يطول فان الملك لم يعتد ان يطيل اقامته في زيارتي · فدخلت اندري الغرفة واقفلت بابها

الفصل السادس والعشرون

(الملك والملكة وجهاً لوجه)

فدخل الملك حينئذٍ والسرور بادٍ في وجهه · فسلم على الملكة فردت السلام بلطف فمدّ اليها يده فاخذتها ماري انطوانت قائلة — ما احسن الصدفة التي اتت بك اليّ

فقال صدقت يا عزيزتي فانها صدفة حلوة كما قلتِ · لقد التقيت بالمسيو دي شارني في خروجه من لدنك فقص عليّ انك امرته بابلاغ جنودنا ان يتركوا التعجل في الامر جنوحاً الى السلم فسرني ذلك جداً وجئت لاشكرك بنفسي

فاطرقت الملكة وقالت ولكنه سلم عن عجز لا عن مقدرة · فقال وقد تغيرت هيئته وما تعنين بهذا · قالت اعني انني لو كنت قادرة على هدم باريز الآنِ حجراً على حجر واحراقها في ساعة واحدة لما قعدت عن ذلك دقيقة واحدة

فضحك لويس وقال انت تعنين عن عجز اما انا فاعف ياماري عن عقل. قالت وماذا تريد بهذا الكلام . قال اريد به انني اكره ان احارب شعبي وعلى الخصوص لانني اجده محقاً في هياجه

فرفعت ماري انطوانت راسها بكبرياء عظيمة وصاحت ملء فمها. تقول ان الشعب محق في هياجه . قال نعم اقول ذلك . قالت تقول ان الشعب محق في تمرده واقدامه على الحرق والقتل . قال اقول انه محق في هياجه ياماري لانه مظلوم ومهضوم فقالت مستهزئة ما احلى هذه الافكار. قال ولكنها افكاري ولا اغيرها . قالت افكارك بعد غذاء ثقيل قال رجعنا الى مسالة الغذاء . انا اعلم انك تلومينني دائماً على كثرة الاكل ولكن ذلك ليس بيدي اذ قد ورثته عن اجدادي فان لويس الخامس عشر كان كثير الاكل وكذلك هنري الرابع ولويس الرابع عشر ولا اجهل ان كثير الاكل لا يرضيك بل تختارين ان يكون غذائي التامل والشعر والتصور ولكن ما العمل بهذا الجسم الكبير الذي يحملني فانه لا قوام له الا بالاكل الكثير واذا كانت كثرة اكلي حاجة لا بد منها فيجب ان تعذريني عليها وان كانت عيباً فينبغي ان تغضي عنه

فقالت ولكنني لا اباحث جلالتك في هذا الامر ولكن في مسالة الشعب . فقال تريدين ان تقولي ان الشعب محقوق فيما صنع ولكن هذا القول خطأ ظاهر ياماري . ماذا تريدين ان يصنع الشعب اذا كان لم يرَ في عهدنا نهاراً ابيض يسره طلوع شمسه عليه فان من جميع الوزراء الذين تولوا شانه لم يهتم به منهم احد غير اثنين وهما تيرغو ونا كار ولكن رجالك ومقربيك اضطروني الى عزلها . فاثار الشعب من اجل الاول فتنة وها هو الآن يثير ثورة عظيمة من اجل الثاني . اما باقي الوزراء فقد كانوا يلعبون بمصالحه لعباً وما كان همهم الا اشباع بطونهم وارضاء البلاط سواء عاش الشعب ام مات ولنضع انفسنا نحن مكان الشعب . لنفترض ان اناساً يعتدون علينا فيستنزفون اموالنا و ينفقونها في ملاذهم واهوائهم دون ان يسالوا عن راحتنا وحياتنا واعراضنا . لنفترض ان خرفانهم ترعى زرعنا وكلابهم تاكل دجاجنا . وثيرانهم تتلف محصولاتنا . وجباتهم تاخذ اموالنا . وشبانهم يعتدون على نسائنا وبناتنا وحكومتهم تاخذ للحرب ابناتنا — لنفترض ذلك فهل تحسبين اننا لانثور عليهم لندفع الشر عنا ونلتمس مخرجاً من ضيقنا

فقالت الملكة باستهزاء يسرني جداً ان اسمع هذا الكلام من فم جلالتك . فقال ولكني انا يسوءُني ان اقوله . و يسوءُني ان اقول ايضاً ان المقربين منك هم من اكبر اسباب

سوء الحال الذي وصلنا اليه · فانهم استنزفوا خزانة الدوله بما كانوا يقبضونه من الملايين في حين ان الشعب كان في المدن والقرى يموت جوعاً

فقالت الملكة غضبي لم يعد مكان للامتنان لانهم سيهجرون فرنسا قريباً خوفاً من الحوادث الحاضرة · فقال الملك فليرحلوا بحراسة الله لنتخلص منهم · زوديهم سلامي واذا كانوا يحتاجون نفقة للسفر فانني اقدمها لهم بطيبة خاطر · ان كل الذين يحيطون بك من عائلة بولينياك فنازلاً قوم لا شهامة لديهم فيجب الفرار منهم · ولست اعلم في حاشيتك احدًا من الافاضل الكرام غير ذلك الشهم الكونت دي شارني

فاحمر هنا وجه الملكة وحوّلت وجهها عن الملك ثم قالت تفضل جلالتك بالجلوس فقد اتعبك الوقوف

فقال نعم اتعبني الوقوف ويتعبني بالخصوص بعد العشاء · وانني اضحك كلما افتكرت بان الذين شاهدوني اتعشى يقولون الآن انني مستريح في فراشي لهضم غذائي · ولكن انظري راحتي · راحتي الآن انني لا استطيع النوم لاشتغال خاطري · وفكري قلق على شعبي · فآه ياماري انني الآن اكفر عن ذنوبي

فقالت الملكة مستغربة ما هذه الذنوب التي تكفرعنها

فقال الملك بجدة اكفرعن الذنوب الماضية فان الاباء ياكلون الحصرم والابناء يضرسون · اكفرعن مدام بومبادور · اكفرعن مدام دي باري · اكفرعن جميع الفظائع والرذائل التي ارتكبها البلاط الفرنسوي منذ قرون وقرون · آه كم انا نادم لانني تساهلت واذنت بصنع ما كانت تكرهه نفسي · فانني كم سجنت من الفلاسفة والكتاب والعلماء دون ان افطن الى خطاءي ولو فطنت اليه واتخذتهم انصارًا لي بدلاً من ان اتخذهم اعداء لكانوا فخرًا لملكي ومجدًا لعهدي · خذي مثالاً لذلك جان جاك روسو هذا الوحش الاسود الذي كان لا يعبأ بشيء ولا يرهبه شيء · فانني نظرته في ذات يوم في تريانون وثوبه مغبر ولحيته طويلة من الاهمال فلو دنوت منه حينئذٍ ورفعت ردائي عن كتفي ووضعته على كتفيه ثم قلت هلم بنا يا روسو نتنزه قليلاً في احراش فيلدافراي

فقالت الملكة مستفهمة باستغراب ولو كنت قلت له ذلك ؟

فقال الملك لو قلت له ذلك لما كتب كتابه « الميثاق الاجتماعي » (١)

(١) روسو — الميثاق الاجتماعي او الكونترا سوسيال كتاب لجان جاك روسو الكاتب والفيلسوف الفرنسوي الشهير · وموضوعه اثبات السلطة للشعب وان سلطته فوق كل

فقالت الملكة فهمت الآن انك تخاف الشعب كما يخاف الكاتب سيده . فقال الملك كلا وانما كما يخاف السيد كلبه . وكم من سيد يجامل كلبه ويلاطفه ليأمن شره . خذي مثالاً لذلك ميرابو (١) فقطعت الملكة عليه الكلام قائلة . نعم نعم قل لي شيئاً عن هذا الوحش الضاري . فقال الملك لو انني الاطفه قليلاً واضع في يده ٥٠ الف ذهب في كل شهر لكان يصبح لي اطوع من كلبي . ولكنك تجبرينني على ان اؤخر ذلك واؤكد لك انه في السنة القادمة يقتضي اسكاته نصف مليون ذهب في الشهر بدلاً من الخمسين الفا .

سلطة . ولهذا الكاتب كتب اخرى في غاية الاهمية منها كتابه المسمى « اميل » وموضوعه التربية وهو من احسن ما قيل في التربية حتى سماه الكتاب انجيل التربية . ومنها كتاب « هيلوييز الجديدة » وهو يتضمن رسائل مختلفة المواضيع في غاية البلاغة . وقد ولد هذا الكاتب في جنيف سنة ١٧١٢ وتوفي سنة ١٧٧٨ وعاش مضطهداً لانه كان غريب الافكار والاطوار . ومن غريب اطواره انه كتب تاريخ حياته في مجلدين سماهما « اعتراف جان جاك روسو » وقد اودعهما كل تفاصيل حياته من الحسنات والسيئات حتى انه اودعهما اموراً شائنة لا ينبغي ان تسطر في الاوراق . ولكنه آثر فضيحة نفسه على الرياء وكتمان شيء من تاريخ حياته . وقال في مقدمة هذا الكتاب الغريب « انني سأتقدم غداً من عرش الذات الاعظم وفي يدي هذا الكتاب فاطرحه لديه واقول له هكذا انت صنعتني »

ويضعون روسو في مرتبة فولتير من حيث انكار الوحي . وهذان الفيلسوفان مبغوضان جداً الى جميع رجال الدين في جميع اقطار الارض حتى ان ذكرهما ليرجف ابدان بعضهم . وقد كان لهذين الفيلسوفين تاثير عظيم على الافكار قبل الثورة حتى انه قيل انهما هما اللذان اعدا سبيلها . و بالنظر لما لهما من الاهمية ينبغي ان نفرد في الجامعة لترجمة كل منهما فصلاً مخصوصاً لذلك نقتصر هنا عن الاسهاب

(١) ميرابو — هو الكونت دي ميرابو ذيموستين فرنسا واخطب خطبائها . كان خطيب الثورة الفرنسوية ومذكي نارها لانه كان ذا تاثير عظيم على الافكار . ولا نصف هنا شيئاً من اعماله لان ترجمته سترد بالتفصيل مع رسمه في خلال الحوادث العظيمة التالية ولا سيما خطبه البليغة في المجمع الوطني . ولد في بينيون سنة ١٧٤٩ وتوفي في باريز سنة ١٨٩١ وكانت وفاته ابان انفجار بركان الثورة الفرنسوية الذي فجرته بلاغته . وتفاصيل حياة هذا الرجل مع تفاصيل موته من اهم الامور التي سترد معنا في تتمة هذه الرواية

وكذلك المسيو بالي فانني لو انشأت الآن وزارة تدعى وزارة الفنون واسندتها اليه لاصبح اطوع لي من كلبي ايضاً

فهزت الملكة راسها . فقال الملك تهزين رأسك ولكنك تجهلين مثلاً كان يقوله جدي هنري الرابع . قالت وما هو قال «هو ان الذبان لا تؤخذ بالخل» اي انها لا تقع على الخل بل على العسل

فقالت الملكة بشيء من الكبرياء اما انا فلا ارى ما تقوله منطبقاً على العظمة الملكية

فضحك الملك وقال انني لا ارى في الدنيا كلها احداً تعظمتك الملكية ياماري ومع ذلك فانني لا اجد لهذه العظمة التاثير الواجب

فعضت الملكة على شفتها وقالت قد فهمت ما اردت جلالتك بهذا الكلام انك تريد ان الشعب يكرهني مع عظمتي ومهابتي

قال ما قلت ان الشعب يكرهك ولكنك لو دخلت الى الباستيل الذي فتحه الشعب اليوم لوجدتِ فيه غرفة ملأى بالكتب التي كتبت بالطعن عليك . بل ما لنا وللكتب القديمة هوذا في جيبي الآن كراس بشانك

ففتحت الملكة عينيها وصاحت بشاني ؟ وماذا يوجد في هذا الكراس ارني اياه . فقال الملك لا استطيع ذلك لان فيه رسوماً قبيحة لا يجدر بك ان تشاهديها

فرفست الملكة الارض برجلها وصاحت ملء فمها هل لم تبحث الى الآن عن ذلك اللئيم صاحب هذا الكراس فقال الملك برزانة وهدوء ولكنك لا تجهلين ياماري ان رجال بوليسي قد ايضت شعورهم كلهم في البحث عن مثل هذه الامور . وهذا وصل من صاحب الكراس بقيمة ٢٢ الف و٥٠٠ ذهب قبضها ليسكت ويسلمنا كراسه . لانه قد نشره خارج فرنسا وليس لنا اليه في الخارج وصول . وهي اننا اردنا اذيته وطلبناه . فاننا في بدء الامر نتصور الطاعن فينا القاذف علينا رجلاً قوي النفس كبيراً فطلبه لنسحقه فنجده حشرة صغيرة بل نملة قذرة ضعيفة نانف ان نمدّ يدنا اليها . ونرى حينئذٍ ان الاوفق لنا ترك هذه الحشرة وشانها تمرغ بالاوحال التي نزلت فيها

فقالت الملكة غضبى اذا بلغت من الضعف الى حد اصبحت عنده لا تعاقب الائمة الطاعنين فلماذا لا تعاقب الذين يحثونهم على الطعن . فقال الملك ومن تعنين . قالت اعني فيليب دورليان سبب كل هذه الشرور

فاجاب الملك لا تتهمي فيليب فانه رجل باسل كريم. فقالت الملكة لا تقل بعيشك

انه باسل وكريم فانه نذل واذا كنتُ قد اسفت لهدم الشعب الباستيل فانما اسفت لانني اصبحت لا استطيع ان اضعه فيه · فقال الملك ولكن لو وضعتِ فيليب دورليان في الباستيل هل تعلمين ما كان قد اصابنا · قالت ماذا · قال كان الشعب اخرجه من الباستيل ووضعه مكاننا ووضعنا مكانه

فصاحت الملكة مستغربة · فقال الملك لا تستغربي يا ماري ما اقول فقالت الملكة وهي تحرق الارم · نعم نعم ما كان اجدره بالباستيل · فقال الملك نعم قد يكون جديرًا به لان الباستيل كان سجن العقلاء

فاجفلت الملكة وصاحت بالملك انت تقول هذا الكلام · قال نعم انا اقول هذا · ان الباستيل كان سجن العلماء والفلاسفة والكتاب وطالبي الاصلاح وهم جمهور العقلاء · وبرهانًا على كلامي اقول لك انني من منذ نحو ساعة رأيت رجلاً عاقلاً خارجًا من الباستيل

فسألته الملكة ومن هو هذا العاقل· فقال الملك رجل يدعى الدكتور جيلبار

فاجفلت الملكة لهذا الاسم وسالته هل هو الرجل الذي قابلته اليوم الكونتس دي شارني · فاجاب الملك اصبت ومن اين علمت هذا · على انني كنت اود لو حضرت مقابلته لها لانني اعلم انك تحبين مشاهدة ما جرى بينهما

فنظرت الملكة الى الغرفة التي كانت اندري مختبئة بها وقالت قلما يهمني ذلك· قال بل اعرف انه يهمك كثيرًا لانك تحبين التنويم المغنطيسي ودليلي على ذلك انك تخفيت يومًا وزرت مسمر فنومك

فاحمرت وجنتا الملكة وحولت نظرها عن الملك · فقال ارأيت انني لا اجهل شيئًا واني اعرف كل شيء · وقد لامتك يومئذٍ الجرائد اما انا فغضيت الطرف عن عملك اكرامًا لك· ولكن الدكتور جيلبار يفوق مسمر مهارة ياماري · فان طريقة مسمر في التنويم كانت صعبة لانه يضع الانسان حول اناء كبير من الخشب ويمسه بقضيب فولاذ ويتخذ وسائل كثيرة في طريقته واما جيلبار فطريقته سهلة جدًا وهي ان يرفع يده ويدنيها من المرأة فتسقط وتنام في الحال · وحينما تنام تتكلم

فدخل الخوف قلب الملكة فقالت كيف تتكلم · قال نعم تتكلم بالرغم عنها وتقول امورًا غريبة عجيبة · وليتك شهدت اليوم المشهد الذي كان بين جيلبار والكونتس فان الكونتس نامت وقالت امورًا مدهشة

فنظرت الملكة مرة ثانية الى باب الغرفة وقالت لا اظن في الامر اهمية كبرى ·

قال بالعكس فانني عرفت من كلامها امرًا مهمًا جدًا ولكني لا اخفي عنك انني ما عرفت كل شيء بعدُ غير ان جيلبار اصبح طبيبي وغدًا يقصُّ عليَّ كل قصته مع الكونتس

فصاحت الملكة · كيف اصبح جيلبار طبيبك · وكيف تستأمن هذا الرجل حياتك

فقال لا تعارضيني في هذا فانك لا تستطيعين تغيير عزمي لانني قرأت في عيني هذا الرجل اخلاصه وامانته · اما حادثته مع الكونتس فالظاهر انها مهمة جدًا

فحاولت الملكة صرفه عن هذا الحديث فقالت ما لنا ولحادثته معها · فقال الملك واؤكد لك ان الكونتس من حسن حظها ان لم يسمعها احد سواي وهي نائمة

فضاقت الملكة ذرعًا بهذا الكلام الذي كانت تسمعه اندري من الغرفة التي كانت مختبأة فيها فقالت للملك ارجو من جلالتك ترك هذا الحديث· فقال الملك ضاحكًا الظاهر انك قد سئمت الحديث معي فانا اودعك الآن واهنئك بحبك السلامة · عمي مساء يا ماري · ونامي نومًا هادئًا

قال هذا ومدَّ يده اليها مبتسمًا لتحيته وحياها ثم خرج وسار الى غرفته

ولم يخرج الملك وينغلق الباب وراءه حتى فُتح باب الغرفة التي كانت اندري مختبئة فيها وخرجت اندري مضطربة هائجة صفراء اللون كانها من الاموات لا من الاحياء · فسارت توًا الى الباب الذي خرج منه الملك فاقفلته كلمح البصر ثم تقدمت من النوافذ فاسدلت الستائر عليها وهجمت بعد ذلك على قدمي الملكة جاثية باضطراب وهياج شديدوصارخة

— · مولاتي انقذيني انقذيني فاطلعك على كل شيء

تمَّ الجزء الاول ويليه الجزء الثاني وهو يُنشر الآن

ذيلاً لمجلة الجامعة
